سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ العَقَائِدِيَّة 4

النُّبُوَّة

فِي مَبَاحِثِها العَامَّة والخَاصَّة

▪ د. محمد محمود مرتضى

مَرْكَزُ بَرَاثَا لِلدِّرَاسَاتِ وَالبُحُوثِ

Baratha Center for Studies and Research

النُّبُـوَّةُ في مَباحِثها العَامّة والخاصّة

د. محمّد محمود مرتضى

رقم الطبعة:
الأولى

تاريخ الطبعة:
2024 م - 1446هـ

مكان الطبعة:
بيروت - بغداد

الآراء المطروحة لا تعبر عن رأي المركز بالضرورة

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com

سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ العَقَائِدِيَّة 4

النُّبُـوَّةُ

في مَباحِثها العامّة والخاصّة

د. محمّد محمود مرتضى

براثا

مركز براثا للدّراسات والبحوث

بيروت - بغداد

مُقدّمة

ممّا لا شكَّ فيه أنَّ النُّبوةَ ظاهرةٌ فريدةٌ في حياة الإنسان والمجتمعات البشرية، وقد جعلها الله -تعالى- لطفًا منه ورحمةً للنّاس أجمعينَ؛ فالبشريّةُ منذ أن وُجد الإنسانُ على هذه الأرض كانَت بحاجة لهدايةٍ تُساعدُها على تحقيق تمَكينِها الوُجوديِّ في مواجهة تحدِّيات الحياة الكثيرةِ والمُختلفة.

وتَنبعُ أهميّةُ النُّبوّةِ من كونها سبيلاً أو جسرًا للتَّواصل بين الخالق -عزَّ وجلَّ- والأنبياءِ عبرَ الوَحي، يَتمُّ من خلالها إيصالُ الرَّسائلِ المُتضمِّنةِ للتَّعاليمِ والأوامرِ الإلهيّةِ، المُتعلِّقةِ بالمسيرةِ الحياتيّةِ التَّكاملية للبشرية وهي تَمضي في رحلتها نحو الكمال في الدُّنيا، والخلودِ السَّرمديِّ في الآخرة، حيثُ يَقوم النبيُّ بإرشاد النّاسِ إلى الصِّراط المستقيم في الفِكر والعمل.. وصولاً للغاية المَنشودة في تحقُّق السَّعادة الأبدية.

والإنسانُ عاجزٌ بمفردِه، وهو الذي خُلق ضعيفًا، أن يَصِلَ إلى غايةِ خلقِه بمَعزلٍ عن النُّبوّةِ والرِّسالات، فالعقلُ البشريُّ قاصرٌ وغيرُ كاملٍ، وهوى النُّفوسِ والقُوى الشَّهوية والغَضبيّة تُسيطِرُ وتتمكَّنُ وتُهيمِنُ..

ولهذا يأتي الأنبياءُ لمُساعدة هذا الإنسان على أداء دوره الاستخلافيِّ على الأرض، عن طريق الدَّعوة للتَّوحيد، وتَعزيز الإيمان بالخالق، والسَّير على هدي تعاليمه ورسالاته التي يُبلِّغُها الأنبياءُ للنّاس.

وتأتي نبوّةُ الرَّسول الكريم محمد (صلى الله عليه وآله) لتكونَ خاتمةَ النُّبوّات والرِّسالات، وقد تُوِّجَت بالمُعجزة الخالدة المُستمرّة مع استمرار البَشرية، وهي معجزةُ القرآن الكريم، الذي ظهرَت فيه العناية الإلهية والاهتمامُ البالغُ بمسألة نبوّة الرَّسول الكريم، فاعتبرَها أمرًا جوهريًّا للعَقيدة، إلى درجة القول بأنَّ القرآن الكريم نزلَ على النبيِّ (صلى الله عليه وآله) لترَسيخ نبوّته وإرساء قيَمها ومبادئها المُوجِّهة لكلِّ البشريّة في كلِّ زمان ومكان، يقول اللهُ تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ ¤ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ¤ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ¤ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾[الرحمن: 1-4].

الفصل الأوّل :

النُّبوّةُ أصلٌ من أُصولِ الدِّين

■ المبحثُ الأوَّل: المَفهوم والمَعنى العامُّ للنُّبوّة

يتجلَّى المعنى العامُّ السّائدُ لمَفهوم «النبوّة» من خلال أنَّه يُوجَد مجموعةٌ من الأفراد (من بني البشر) يكونون في موقع الوَسيط بين خالقِ الوُجود وبينَ النّاسِ الذينَ خلقَهُمُ اللهُ على هذه البَسيطة.. يَنقلون أوامِرَه وتَعاليمَه -عزَّ وجلَّ- إلى البشرية لتَنفيذِها والالتزامِ بها.

استعملَ القرآنُ الكريمُ مصطلَح النبيِّ (النُّبوة)، ومصطلحَ الرَّسول (الرِّسالة)، حيثُ وردا في كثير من آياته الكريمة. ويُشتقُّ لفظُ «النبيِّ» من مادّة «نبأ»، وهو في الأصل مشتقٌّ على صيغة "فَعيل" بمَعنى "مُفعِل"، أي المُنبِئ المُخبِر، فالنبيُّ هو حامل الوَحي، والمُخبِرُ عن الله[1].. ولكنَّ كلمة نبأ لا تُطلق على كلِّ خبرَ، بل تختصُّ بالخبرِ المُهِمِّ والعَظيمِ والصّادق الذي يَنطوي على أهمِّيَّة خاصّة، فـالنَّبيُّ هو الشَّخصُ الذي يُخبِرُ عن اللَّه عزَّ وجلَّ.

وأمّا كلمتا «رَسول» و«مُرسَل» فهما من مادّة الإرسال، التي تَعني في اللُّغة العربية التَّحرُّرَ، ويُقابلُه التَّقييد، وبذلك يكونُ المُرسَلُ في مُقابل المُقيَّد. وتُستخدم كلمةُ الإرسال في الغالب بمَعنى البَعث، فلو أرسلَ المَلكُ أو الأميرُ شخصًا من عنده إلى الآخَرينَ قيل: إنَّه أرسلَه، وللمبعوث مُرسَل. فالرَّسولُ بمَعنى المبعوث المُرسَل، وأمّا النبيُّ فهو المُخبر[2].

بطبيعة الحال يُمكنُ لمَبحث النُّبوّة أن يَنطلقَ من عدّة قضايا ومسائلَ فِكريّةٍ، فمِنها ما يتَّصل بالحاجة الماسّة للبشرية لوُجود نبيٍّ هادٍ وبَشيرٍ

1 - معجم المعاني، نسخة رقمية، الرابط:
https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D986%%D8%A8%D98%A/

2 - مرتضى مطهّري: سلسلة أصول الدين-النبوّة، ص48.

ونَذير.. وهذا يَعني أنَّ هناك ضروراتٍ تَدفع لإيصال رسائلَ وأوامرَ من السَّماءِ إلى البشر عن طريق بعضِ البَشر؟ وهنا يمُكنُ أن نسألَ عن مصدرِ ومَنبعِ هذه الضَّرورات؟!. وهل فعلاً تَحتاج المجتمعاتُ البشريّةُ إلى مثل هذا الأمر؟ وهل من الحتميِّ والحيويِّ أن يتمَّ هذا الفعلُ عن طريق بشرٍ أم أنَّه تُوجد طُرق أخرى؟!.. وهل مَنشأُ تلك الضَّرورات يَعود إلى أنَّ الحياةَ البشريّةَ تتضمَّنُ الكثيرَ من المَظالم والاختلالات والانحرافات، التي تتطلَّبُ معالجتُها إرسالَ الرُّسل وإعلامَ النّاس بأحكام السَّماءِ وتعاليمها من أجل العَودةِ إلى جادّة الحقِّ والصَّواب؟!. وهل الحاجةُ للرُّسل والرِّسالات تقتصرُ على الحياة الدُّنيا أم أنَّ لها مُتعلَّقات وارتباطاتٍ أُخرى بحياةٍ أُخرى وراءَ هذه الحياة الدُّنيا، بحيثُ إنَّ وصولَ الإنسانِ لسعادته في النَّشأة الأُخرى تتَّصلُ بطبيعةِ حياته المَعيشة في هذه الدُّنيا، ومَدى التزامه بالمبادئ والأخلاق الدِّينية الإنسانية؟! أم أنَّ حاجةَ البشر للنُّبوّة تَستدعيها الحالتان معًا، أي أنَّ النّاسَ يَحتاجونَ للنُّبوّة التي تَعرضُ وتَنشر تعاليمَ السَّماء كي يَلتزم بها النّاسُ لضَمان وصولهم إلى سعادة الدّارَين، الدُّنيا والآخرة، أي أنَّ هناكَ ارتباطًا وعلاقةً وثيقةً بين النَّشأتَين، حيثُ إنَّ الثّانيةَ نتيجةٌ للأولى؟!.

ومن تلك الأمور التي يمُكنُ بَحثُها، في قضيّة النُّبوّة، الكيفيّةُ التي يتلقَّى من خلالِها الأنبياءُ أحكامَ السَّماء وتَعاليمَها، في ظلِّ ما صرَّحَ الرُّسُل به من أنَّه يُوحى إليهم من اللَّه، حيث تتنزَّلُ المَبادئُ والتَّعاليم والأحكامُ منه -عزَّ وجلَّ- .. فالوَحيُ واسطةٌ، وهو يَحدثُ عبرَ الملائكة.

ومن تلك المسائل أيضًا: الحديثُ عن الإعجاز والمُعجزات التي يمُكنُ اعتبارُها إحدى أهمِّ آياتِ الأنبياءِ وبراهينهم في إثبات رسالتِهم ونبوّاتِهم..

والبحثُ فيها يَدور حولَ معنى المُعجزة؟ وطبيعتِها وكيفيّتِها؟ ومدى إمكانيّةِ حدوثها؟ ومدى علاقتِها بالعَقل والعلم؟..

ولا شكَّ بأنَّ حديثَنا عن النُّبوّةِ لا بدَّ أن يأتيَ على ذِكر نبوّةِ الرَّسول الكريم محمد (صلى الله عليه وآله)، الذي جاء بمُعجزةٍ خالدةٍ وأبديّةٍ هي القرآن الكريم، حيثُ خُتِمَت به حركةُ النُّبوّاتِ والرِّسالاتِ السَّماوية، وهذا مظهرٌ بارزٌ ومَعْلَمٌ مُهِمٌّ في ديننا الإسلاميِّ، وعقائد المسلمين.

■ المبحثُ الثاني: ضرورة النُّبوّة والحاجة إلى الدِّين

يتركَّزُ حديثُنا عن ضرورة النبوّة في نقاط ثلاث:

1 - حاجة المجتمعات البشرية للنُّبوّة.

2 - التأكُّد من مدى الحاجة البشريّةِ للنُّبوّة.

3 - هل يَنبغي أن تحصل المجتمعات البشريّةُ على كلِّ ما هي بحاجة إليه؟

أولاً- واقعُ حاجةِ المجتمعات البشريّة للنّبوّة

بعث اللهُ الرُّسلَ والرِّسالاتِ لهداية النّاسِ إلى الصِّراطِ المُستقيم، وإرشادِهم إلى طريقِ الخَلاصِ والنَّجاةِ في الآخرة، وتنظيمِ حياتِهم في الدُّنيا وفق المنهج الإلهيّ والتَّعاليم الرَّبانيّة، والغاية تكمنُ في صلاحهم ووُصولهم إلى السَّعادة، وهذا أمرٌ مفروغٌ منه، ولكن البحث يتركَّزُ في تلك الغاية الأخيرة والنِّهائيّة لهذا الصّراط المستقيم.. وأينَ تكمنُ وتتركَّزُ سعادةُ البشر؟. ولهذا يتحرَّكُ بحثُنا هنا عن النُّبوةِ حولَ فهمِ حاجةِ البشرِ للنُّبوّة، وحاجتهم للدِّين..!!.

نُؤكِّدُ بدايةً على أنَّ هناك أمرَينِ أساسيَّينِ يُحدِّدانِ طبيعةَ الحاجةِ الإنسانيّةِ للدِّين، وللنُّبوّة بالذّات، وهما: الحياة الآخرة، والحياة الاجتماعيّة والفرديّة في الدُّنيا.

1 - الحاجةُ على مستوى الآخرة

إنَّ الإيمانَ بالآخرة، كمُستَقرٍّ وجزاء للإنسان، له دورٌ أساسيٌّ، بل جوهريٌّ، في موضوع المَصير الإنسانيِّ، حيثُ إنَّ الإنسانَ يتطلَّعُ للعَيشِ الهانئِ السَّعيد، والوصولِ للغايات النَّبيلة الكُبرى، وهنا يأتي دورُ النُّبوة من جهة عدمِ قدرةِ الإنسانِ على الوصول إلى معرفة عالَمِ الغَيب، وبذلك تكون الحاجةُ للنُّبوّةِ هي الحاجةُ لما يُرشِدُ إلى السَّعادة، ويُفضي إلى تمَامِ العَيشِ، ويقودُ إلى النَّجاةِ في الآخرة.

وقد أشارَ القرآنُ الكريمُ إلى هذه المَسألة، فأكَّدَ على أنَّ الأنبياءَ هُداةٌ يُمارسونَ دورَهم ومُهمّتَهم وراءَ ساحة العقل، وهي ساحةُ الآخرةِ والنَّشأة الأُخرى التي تتميَّزُ بالدَّيمومةِ والبَقاء.. وهذه مسألةٌ لا دَورَ للعَقلِ والعلمِ فيها، وإنَّما ينحصرُ دورُهما فقط في هذه النَّشأة الدُّنيويّة على صعيدِ التَّدبيرِ الحياتيِّ، وبناءِ مُقوِّماتِ العَيشِ الدُّنيويِّ، وإلى حدٍّ ما في مسألة التَّوحيد والهداية إلى المبدأ. أمّا المَعادُ فالعقلُ يُؤيِّد ما أشارَ إليه الرُّسلُ من دلائلَ على تلك النَّشأة.

من هنا، وبالنَّظر لما أخبرَنا عنه الأنبياءُ من سماتِ الدَّارِ الآخرة وأوصافِها في أصل وجودِها، وما يَحدث للمَصير الإنسانيِّ فيها، سعادةً وشقاءً، فسوف يتأكَّدُ لنا مَدى الحاجةِ الماسّة للرُّسل على صعيد المَصير الإنسانيِّ كضرورةٍ

لازمةٍ ثابتة، نتحدَّثُ عن هذا الدَّورِ النَّبويِّ، في ظلِّ عجزِ العقلِ والعِلمِ عن معرفة حقيقة النَّشأة الأخرى، وعجزهما أيضًا عن معرفةِ حقيقةِ الموتِ والآخرةِ، فضلاً عن البحث عن مسألة الغَيبِ وتحديد الأمورِ النّافعةِ والضّارّة في البرَزخِ والقيامة.. يقول اللهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ¤ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [آل عمران: 169-170].

2 - الحاجةُ على مستوى الحياة المُجتمعية الفردية

يؤكدُ علماءُ الاجتماع البشري أنَّ الفردَ الإنسانيَّ مختلفٌ عن بقيّة الكائنات، حتى التي لها حياةٌ اجتماعية غريزيّةٌ بشكلٍ من الأشكال؛ فهو كائنٌ اجتماعيٌّ بطبعه الذاتيِّ الفِطريّ، بمعنى أنَّه لا يَستطيع أن يعيشَ مُنعزلاً عن النّاس، ولا يُمكنُ أن تَستوي حياته وتتوازنَ معيشتُه من دون بناءِ علاقاتٍ تعاونيّة تفاعُليّةٍ مع مُحيطه البشريِّ الاجتماعي.

إن كثيراً من الكائنات التي نُشاهدها ونُراقبها في الطَّبيعة لديها حياةٌ اجتماعية.. فمثلاً لو دقَّقنا في عالم النَّحلِ، القائم على نظامٍ حياتيٍّ اجتماعيٍّ متكامل، فسنجد أنَّ لكلِّ صنف من هذا النَّوعِ دورًا مُحدَّدًا ووظيفةً ثابتةً يَعرفُها ويمُارسها ضمن تراتُبيّة مُتقَنة.. فالنَّحلُ العاملُ (النَّحلة الشَّغالة) تَقوم بوظيفتها بدقّة مُذهلة، كما أنَّ الملكةَ -وهي أعلى الهرم الاجتماعي لخلية النَّحل- تمُارس دورَها ووظيفتَها في وضع البَيضِ انطلاقًا من هذه المَسؤوليّة والمَوقع والدَّور.. هذا كلُّه يَجري ويتحرَّكُ ضمنَ قانونٍ غريزيٍّ طبيعيٍّ، يُسمِّيه

القرآنُ بالوَحي.. يقول اللهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ**﴾ [النحل: 68]..

أمّا الكائنُ البشريُّ (الإنسان) فهو رغم كونه يَعيش مُجبرًا ومُضطرًّا ضمنَ جماعةٍ بشرية، لكنَّه يمَلكُ الخيارَ والإرادة، ويمُكنُه رفضُ الأوامرِ والتَّخلُّف عن أداءِ واجباتِه، وعدَمُ القيامِ بمَهامِّه.. وقد يَختارُ -عكسَ النَّحلِ- مَصلحتَه الخاصّةَ على حساب مصالحِ الجماعةِ التي يَعيش في ظلِّها وكَنفِها.. فهو مَجبولٌ على حبِّ الذّات والاهتمامِ بمَصلحته الخاصّة.. ولهذا فهو بحاجة ماسّة دائمةٍ إلى شكلٍ من أشكال الهدايةِ والتَّوجيهِ، بحاجةٍ إلى ما يأخذُ بيدِه لتَحقيقِ مصالحِه والغايةِ من وجودِه، وتأمينِ حاجاته الاجتماعية..

وبناءً عليه فقد أرسلَ اللهُ -تعالى- الرُّسلَ والأنبياءَ للقيام بهذه المهُمّة السّامية، وهي إرشادُ الإنسانِ لمَصالحِه الاجتماعية وغير الاجتماعية، وتمَكينُه من مبادئ الإيمانِ والعقائد الدِّينية، وتعليمُه أُسسَ الأخلاقِ والفضائلِ الدِّينيّة التي أنزلها الله في كُتبه ورسالاته.. ولو لم يَحدُثْ مثلُ هذا الأمر (إرسال الرُّسل وهداية البَشر) لما تمكَّنَتِ البشريّةُ في كلِّ مَسيرتِها الزَّمنية من بناء الحضارات والمَدنِّيات، وإنشاءِ معالمِ الحياةِ البشرية الضَّرورية وقواعدِها المَتينة الاجتماعية وغير الاجتماعية.. ولكانَت انتهَت تلكَ المَسيرةُ وانقرضَتِ الحضاراتُ، وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ الحضارات الإنسانية تَدين في بقائها واستمراريّتِها للرُّسل والأنبياء، في كلِّ ما قدَّموه وأنتجوهُ من أعمال وعطاءات، وبَذلوه من مَجهودات، في سبيل الهدايةِ والإرشاد الإنسانيِّ..

ويمُكِنُ القولُ بأنَّ عطاءَ الرُّسلِ لَم يَقتصر على الجانب العمليِّ فقط، بل

كان العطاءُ والأثرُ الأكبرُ واضحًا في الجانب المَعنويِّ الرَّمزيِّ، من خلال تَعميق الحِسِّ المَعنويِّ الأخلاقيِّ، كقيمةٍ كُبرى في نفوس النّاس، ولولا هذا المَوروثُ الأخلاقيُّ والتَّربويُّ الإنسانيُّ، الذي تمكَّنَت منه الإنسانيّةُ من خلال الرُّسل وتأثير الكُتب السَّماويّة، لتيبَّسَت هذه الرُّوحُ الإنسانيّةُ، ولتَحوَّلَ البشرُ إلى مجرَّدِ كائناتٍ وظيفيّةٍ ومَوجوداتٍ مُتوحِّشةٍ تَعيشُ وتَتعيَّشُ على الصِّراعات والعُنف والدِّماء.

لقد ركَّزَت كلُّ الرِّسالات السَّماويّة على قيمة العَدل، كغايةٍ كُبرى يَجب الخضوعُ لَها والانصياعُ لِمَعانيها ومُقتضياتِها الاجتماعية وغير الاجتماعية، لأنَّها أهمُّ ركنٍ من أركان نجاحِ الإنسان في عَيشِه البشريِّ معَ النّاس، على طريق بناءِ الحضاراتِ والمُجتمَعات.. أي أنَّها ضرورةٌ حيويّةٌ من ضرورات الحياة الإنسانيّة واستمراريّتِها في الزَّمان والمكان، ولا شكَّ أنَّ الضّامنَ لبَسطها تَجسَّدَ في حركة النُّبوّة وبعثة الأنبياء. ولهذا لاحظنا أنَّ كتابَ الله، لا يتحدَّثُ فقط عن النَّشأة الأخرى وعالَمِ الدَّارِ الآخرة، بل يَعتبر أنَّ من ضمن أهداف الأنبياء بناءَ الحياة الدُّنيا وصياغَتَها وتَنظيمَها على العَدل.. يقول اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ [الحديد: 25].. وفي هذا إشارةٌ واضحةٌ بالغةُ الدّلالة على معياريّة العَدالة الاجتماعيّة، وضَرورةِ السَّعي لتَحقُّقها.. إذ تُشير الآيةُ إلى حاجة البشر إلى العَدل في سياقِ الضَّرورة، فلو لم يَكن الأنبياءُ لَما كانَت ثمّةَ عدالةٌ، ولو لم تكنِ البَشريّةُ بحاجةٍ إلى العَدل لكانَ فِعلُ اللَّه -في بَعثِ الرُّسلِ- لَغوًا[1].

1 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص50.

ثانيًا - هل صحيح أنَّ المجتمعات البشرية تَحتاج للنُّبوة؟

قد يتوهَّمُ بعضُ النّاسِ أنَّ امتلاكَ الإنسانِ للعَقلِ هو رادعٌ وصَمّامُ أمانٍ لتجنُّبِ وقوعِه في مَهاوي مَصالحِه ونَزعاتِه الخاصّة، فهو إذن يُشكِّلُ -بحسبِ هذا الزَّعم- ضمانةً حقيقيّةً لعَدمِ انحرافِ هذا الإنسانِ أو انسياقِه وراءَ مَصالحِه على حسابِ مَصالحِ المُجتمعِ ككلّ.. وهذا يَعني بالنَّتيجة عدمَ حاجةِ الإنسانِ لرَسولٍ أو رسالةٍ لهدايتِه وتَحذيرِه...!!.. وعليه، فكيف باستطاعتنا إثباتُ وجودِ حاجةٍ بشريّةٍ حقيقيّةٍ للنُّبوةِ والرُّسل؟ وكيف يُمكِنُ أساسًا إثباتُ حاجةِ الإنسانِ للدِّينِ، خاصّةً أنَّ البشرَ عمومًا لا يَلمسون في واقعِ الحياةِ مثلَ هذه الحاجةِ أو الرَّغبة؟

في الإجابة نُؤكِّد على أنَّ دراسةَ تاريخِ الإنسانِ في مُجمَلِ مَسيرتِه الزَّمنيّةِ، وعلى امتدادِ الحقبِ والعُصور، لم تُظهِرْ تمكُّنَه من الوصولِ إلى بناءِ أُسسٍ قانونيّةٍ فعّالةٍ مَضمونةِ الإجراءِ والتَّجسدِ والتَّنفيذِ الحَقيقيِّ، من دون مساعدةِ النُّبوّاتِ والرُّسل، وهذا يَعني أنَّ العقلَ لا يَستطيعُ لوحدِه الوصولَ إلى ذلك الهَدف.. ولا يَعني ذلكَ التَّقليلَ من دَورِ العَقلِ وأهمِّيتِه في تَطوير حركةِ المُجتمعاتِ البَشريّة، لكنَّنا نُشيرُ هنا إلى أنَّ هناك كثيراً من النّاسِ تَركوا حُكمَ العَقلِ ودَورَهُ وإرشاداتِه، ليَنساقوا ويتحرَّكوا خلفَ قُواهم الغَضبيّةِ والشَّهوية..

ولهذا تَبقى الحاجةُ قائمةً ومُلحّةً لوُجودِ هدايةٍ حقيقيّةٍ رَصينةٍ ومعياريّةٍ تَهدي الإنسانَ لمَصالحِه وغاياتِه، دونَ الوقوعِ في مَهاوي الضَّياعِ والمَطامعِ الخاصّة، وتُضيءُ له طريقَ الخيرِ والفَلاحِ الدُّنيوي والأُخروي..

من هنا يُمكِنُ الإشارةُ في هذا السِّياقِ إلى أنَّ "الحاجة" للهِداية تَقوم على عدّةِ اعتباراتٍ أو أُمورٍ أساسيّةٍ، هي:

1. أنَّ الإنسانَ موجودٌ حرٌّ مُختارٌ، وهذا يقودُ إلى ضَرورة أن يمُارِسَ فعاليّتَه الحياتيّةَ ونشاطاته الوجوديّةَ بمَلءِ إرادته، ووَفقًا لخياراته وقَناعاته، دون أن يَتناقضَ ذلك مع خياراتِ الآخَرينَ واعتقاداتهم.
2. أنَّ الإنسانَ اجتماعيٌّ بالطَّبع، وفي بنيةِ وجودِه ما يُملي عليهِ أن يَعيش حياةً اجتماعيّةً بالتَّعاون مع الآخَرين، سواء كان ذلكَ بسببِ الاستعدادات الجسميّة لَديه أم بسببِ الاستعداداتِ الرُّوحيّة والمَعنويّة.
3. أنَّ الإنسانَ يُحِبُّ ذاتَه ويُقدِّمُ مَصلحتَه على المَصالح الأُخرى، وهذا يَتسبَّبُ له بكثير من المشاكل والأزَمات، أي أنَّه لن يَستطيعَ تدبُّرَ حياتِه الاجتماعيّة على هذا النَّحو الطَّبيعيِّ والغَريزيِّ (الفِطري)، والتي تَدفعُه نحوَ مَنافعه الخاصّة حتى على حساب مصلحة غيرِه.

لهذا فإنَّ تحقيقَ التَّوازن في شخصية الإنسان، وإلزامَه باحترام القَوانين والخُضوع لمنَطقِ العَدل، لا يُمكنُ أن يتحوَّلَ واقعًا مَلموسًا من دون وجودِ قوّةٍ مُهيمنة مُلزمة، وهي قوّةُ الإيمان المُسوَّرة بالقَوانين والأخلاقيات، لأنَّها هي التي تَجعلُ الإنسانَ يَخضعُ مُلتزمًا بالقَوانين تحتَ رعاية قِيَمِ السَّماءِ ورَقابةِ الله تعالى.

وهذا الالتزامُ بالمَعايير والأصول القانونية والأخلاقية والقِيَميّة الفِكريّة والسُّلوكيّة كانَ من أهمِّ أسبابِ بقاءِ الحياةِ الإنسانيّة واستمراريّتها..

فالقضيّةُ إذنْ تكمنُ في الإيمان والاحترام.. وهما أساسُ بناءِ الحياةِ الاجتماعيّة وتَطوُّرها وفاعليّتها، ومن دون مُراعاتهما ستَنكَفِئُ (هذه الحياة الاجتماعيّةُ للبَشر) إلى حدودٍ ضيِّقةٍ من الذّاتيّة والتَكسُّب الشَّخصيِّ وارتزاق النّاسِ بعضِهم على حساب بعضٍ.

ثالثًا- البشريّةُ تحتاجُ النُّبوة بشكلٍ دائم

إنَّ الحاجةَ للنُّبوة ولإرسالِ الرُّسلِ لا تَنطلقُ من خلال أنَّ العَقلَ البشريَّ قاصرٌ وعاجزٌ عن قيادة البَشر في مسيرتهم الحَياتية، خاصة إذا كان عَقلًا مَحضًا، وإنَّما تَنطلق من ضرورة أنَّ العقلَ يَحتاج إلى دور أكثرَ رصانةً وعُمقًا، لا يتأثَّرُ بالعَواطف والرَّغبات، وقادرٌ على السَّيطرة والضَّبط بَعيدًا عن الهَوى والمزاجِ والمَصلحة الخاصّة، وهذا هو الدَّورُ النَّبويُّ المُتوازنُ والفاعِلُ والحَكيم.

وحتى على صعيد امتلاكِ قوّة التَّجسيد والتَّنفيذ، ليس للعلاقة أهمِّيَّةٌ في هذا المَجال، لأنَّه يتأثر سلبًا وإيجابًا، حيث إنَّ العقلَ العَمليَّ يَدفعُ الإنسانَ ويُملي عليه أن يَسيرَ خلفَ مَصالحه دون النَّظر لمَصالح الآخَرين، ويُشخِّصُ مصلحتَه على أساس أنَّها الأهمُّ والأكثرُ حيويّةً وضرورةً، ولو على حساب غيره.. وهذا ما قد يَتسبَّبُ بحُدوث أزمَات ومُشكلات اجتماعية، ولا حلَّ لهذا المَرضِ الاجتماعيِّ إلا بوجود دَور للنَّبيِّ وقُوّة الإيمان في داخل نفسِ الإنسان.

ممّا تقدَّمَ نَستنتجُ أنَّ الرُّسلَ والأنبياءَ لم يَبعثْهُمُ اللهُ -تعالى- ليكونوا بديلًا عن هذا العَقلِ، ولا لمُواجهته، ولا لتَعطيل دَوره ومُهمَّته، خاصّةً أنَّ اللهَ ذكرَه بإيجابيّة كبيرةٍ في كتابه الكريم، بل على العكس تمامًا: لقد بُعثوا لإثارة دَفائنِ العُقول وتَحريرها من أسرِ الهَوى واتِّباعِ المَصالح.. قال -تعالى- في دعوته للتَّفكير العَقليِّ ورفضِ اتِّباع سنن الآباء والأجداد: ﴿**بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الزخرف: 22].

لقد سَعى الإسلامُ والقرآنُ لتَركيز دورِ العَقلِ في المجتمع الإنسانيّ، وضرورةِ العملِ الدَّائمِ على التَّمهيد لدَوره وفاعليّته، وقد لاحظْنا أنَّ الرُّسلَ

والأنبياء تآزروا على كسر حلقاتِ الأغلالِ التي تُكبِّلُ حركةَ العقلِ بعدَ أن كان الإنسان يُعظِّمُ صَنائعَ يدِه، ويَعبد الحجارةَ والكواكبَ والنّارَ، فنَهَوهُ وحاوَلوا مَنعَهُ من التَّعبُّدِ لها، ودَعَوهُ للتَّوجُّه إلى عبادة الخالق العَظيم الواحد الأحَد، ومَنحوهُ شخصيّتَه الخاصّةَ بينَ المَخلوقات: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا**﴾ [الإسراء: 70]..

وجاء عن الإمام عليٍّ (عليه السلام) في موضوع فلسفته حول بعث الأنبياء (عليه السلام): "فبَعَثَ فيهم رُسُلَه، وواترَ إلَيهم أنبياءَه لِيَستَأْدُوهُمْ ميثاقَ فِطرَتِه"[1]، فالأنبياءُ والرُّسلُ كلُّهم لم يَأتوا لإلغاء دورِ العَقلِ، بل طالَبوا النّاسَ بتَحريكِ عقولِهم والتَّفكر في خلق الله والتَّأمُّل العَقليّ في موجوداته، أي كانَت دعوتُهم تتحرَّكُ في خطِّ فِطرته وطَبيعته، ورَفع المَوانع من طريقِ الفِطرة: «ويُذَكِّرُوهُم مَنْسِيَّ نِعْمَتِه،... ويُثيرُوا لَهُم دَفائنَ العُقُول"[2]..

1 - محمد بن الحسن (الشريف الرضيّ)، نهج البلاغة (خطب الإمام علي عليه السلام)،، الخطبة1، ص43.

2 - م.ن.

الفصل الثّاني:
ضَرورة النُّبوّة

هناكَ من يَستشكلُ على فكرِه «إثباتُ النُّبوة من خلال الحاجة إليها»، ويقول بأنَّه لا يمُكنُ على الدَّوام إثباتُ وجود الأشياء لمُجرَّد أنَّ البشرَ يَحتاجونها..!!. والعالَمُ قد لا يُوجَد فيه ولا يَحتوي دائمًا على كلِّ ما تَرمي إليه نفوسُ البَشر، وتتطلَّعُ إليه رغباتُهم وأمانيهم..!!.. وحتَّى على فرض أنَّه تمَّتْ عمليّةُ ثبوتِ الحاجة، فإنَّ ذلك لا يَصلح أن يكون دليلاً على ضرورتها ولزوميّتِها.

■ المَبحثُ الأوّل: مناهجُ إثبات ضرورة النُّبوّة

حتى نَفهم طبيعةَ التَّلازُمِ بينَ الحاجة الإنسانيّة للنُّبوة وضَرورةِ وجودِ الرُّسل والأنبياء، يَنبغي علينا اتِّباعُ مَنهجَينِ، كلاميٍّ وفلسفيٍّ:

أولًا- المنهجُ الكلاميُّ في إثبات النُّبوّة

تعتقدُ فئةٌ من علماءِ الكلام (ممَّن يُؤمنون بمَوضوعة الحُسن والقُبح العَقليَّين) أنّ الحكمةَ الإلهيّةَ تَستلزمُ أن يَصدر عن الله -تعالى- الفعلُ المُطابقُ للمَصلحة، ولذلكَ فالأمر الحَسن يَنبغي فعلُه بحسب مُقتضى حكمتِه -تعالى-.. والفعلُ القَبيح لا يَنبغي فعلُه لأنَّه يُعَدُّ حالةً شاذّةً عن حكمتِه، وهكذا فإنَّ إرسالَ الأنبياء والرُّسل لهداية الإنسان هو أمرٌ نافعٌ ومُفيدٌ وفيه مَصلحة، أي أنَّه فعلٌ حسنٌ، وهذا يَقتضي منه -تعالى- فعلَه. «وإدراكُ العقلِ لوجوب الفعل لا يَعني التَّحكُّمَ بالله، بل إدراكُه هو اكتشافٌ للوَجه في أفعالِه لا أكثر»[1].

1 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص.ص. 85-86.

ثانيًا- المنهجُ الفلسفيُّ في إثباتِ النُّبوّة

لا شكَّ أنّ الحاجةَ عند الإنسان هي أمرٌ فِطريٌّ طبيعيٌّ، بل يُمكِنُ عدُّه قانونًا طبيعيًّا مُهيمنًا.. وهذا ما اعتمدَ عليه فلاسفةُ الإسلامِ في إثبات موضوعِ النُّبوة. فإذا كان الإنسانُ مُحتاجًا لأمرٍ له إمكانيّةٌ للوجودِ، وتحقَّقَت شرائطُ وُجوده، فسوفَ يُوجَدُ، ولا بدَّ أن يُفيض الله على هذا الشَّيء الوُجودَ.. وهذا التَّفكيرُ أو المَنهجيّةُ هي ذاتُها التي يُمكِنُ تَطبيقُها على قضيّةِ النُّبوة، على النَّحو التالي:

1. فكرةُ النُّبوّةِ ليسَت خياليّةً ولا مِثاليّةً، بل لها إمكانيّةٌ في عالَمِ الوُجود، أي أنَّ العَقلَ والفكرَ الإنسانيَّ لا يَنفي إمكانيّةَ حُدوثِها، من حيث إمكانيّةُ تَواصُل أو اتِّصال الإنسانِ بالعالَمِ الآخَرِ، أو أن يُوحَى إليه من عالَمِ الكمالِ المُطلَق.
2. لا تَستوي البشريةُ في حركتها الوُجوديّةِ من دونِ النُّبوّةِ، أي أنَّ المُجتمعاتِ البَشريّةَ هي بمَسيسِ الحاجة إليها، فهي ضربٌ من الخَير والسَّعادة والكمال.. ويُفضي عدمُ وجودِها في حياة البَشر إلى حدوث فراغٍ وجوديٍّ كبيرٍ في حياتهم، وهذا يُؤدِّي بدوره حتمًا إلى تَفجُّرِ الاضطرابات والقلاقل بين البشر، بما يَمنعُهم ويُعيقُ تَحرُّكَهم وسَعيهم لتَحقيق الكمال المُمكنِ لهم.

وبالاستناد إلى ما تقدَّمَ من تحليل منهجيٍّ في المُقدِّمتَينِ السّابقتَينِ، يُمكِنُ أن نُقرِّرَ بأنَّ النُّبوّةَ حاجةٌ أصيلةٌ للإنسانية، ومن الضَّروريِّ وجودُها كأصلٍ ثابت في هذه الحياة..

وعن هذا الموضوع يتحدَّثُ الشَّيخ الشَّهيد مرتضى قائلاً: «وهذا

المنهجُ لا يتحدَّثُ عن تكليف الله، وأنَّه يَنبغي أنْ يفعلَ ما هو مكلّفٌ به، كما نجدُه في المَنهج السّابق، بل يُؤمِنُ فلاسفةُ الإسلام بأنَّ اللهَ فاعلٌ تامٌّ، ولا يمُكِنُ أنْ يمَتنِعَ الفَيضُ من ناحيتِه، فلا مَجالَ للبُخلِ في ذاتِه كي يمَنَعَ الفَيضَ. ولذلكَ، فإذا ما كانَ لشيءٍ في نظام الوجود إمكانُ الوجود، وكانَ هناك حاجةٌ إليه، فسيُفاضُ عليه الوُجودُ من قِبَلِ الله. وهذا برهانٌ لمِّيٌّ، كونُه يَنطلقُ من الله وصفاتِه إلى ضرورة وجود النُّبوّة، أي من العِلّةِ إلى المَعلول»[1].

ومن أجل الوقوف والتأمُّلِ في بيان حكماءِ الإسلام، نسألُ: هل من الضَّروريِّ الاستدلالُ على أمرٍ أو شيءٍ ما من خلال الله -تعالى- فقط؟!.. بمعنى، أنَّه إذا عَلِمْنا وآمَنّا بأنَّ اللهَ موجودٌ، وأردْنا أن نُبرهِنَ ونَستدِلَّ من خلاله -تعالى- على وجود شيءٍ أو أمرٍ مجهولٍ وجودُه بالنِّسبة إلينا، فهل يُمكِنُ أو يَصِحُّ قولُنا: ما دامَ اللهُ موجودًا فيَجب ويَنبغي أنْ يكونَ ذلك الشَّيءُ موجودًا بالضَّرورة والمآل، بحيث يكونُ وجودُه ضرورةً ناشئةً من وجود الله تعالى؟!

في الحقيقة، لا نشكُّ لحظةً أنَّ العقلَ غيرُ قادرٍ بمُفرِده على التَّحديد الدَّقيق لكلِّ ما يَجبُ أنْ يُوجَدَ.. رغم أنَّ باستطاعتِه البُرهانَ والاستدلالَ على نظامِ الوُجود ككلّ، وذلك عن طريقِ معرفة الله تعالى.. فاللهُ موجودٌ، ومُسبِّبٌ للأسبابِ وعلّةٌ للوجود، وطالَما هو كذلك، فلا يُمكِنُ أن يَسري أيُّ خللٍ في نظامِ الخَلقِ والوُجودِ كلِّه.. بمَعنى أنَّه عندما تتوفَّرُ لأيِّ موجودٍ

1 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص.ص. 87-88.

من المَوجودات إمكانيّةٌ للنُّموِّ وأرضيّةٌ للكَمال في ذاته، (مع عدمِ وجودِ مُعَوِّقات وموانعَ ذاتيّة)، فإنَّ الكمالَ سيُفاض عليه منه -تعالى-، وهي إفاضةٌ حتميّةٌ يَقتضيها نظامُ الخَلق.

«إنَّ مَشروعَ الخلقةِ مَشروعٌ متكامل، وله نظامٌ مُتَّسِقٌ ومُنسجِمٌ، يَحتلُّ فيه كلُّ شيءٍ مكانَه، ومِن ثَمَّ فلا مَعنى لتَعيينِ لائحةِ تكاليفَ ونظامِ واجبات على الله وأمثالِ ذلك، وإنَّما تتحرَّكُ الخلقةُ في إطار نظامٍ مُحدَّدٍ لا يتخلَّفُ ولا يُمكِنُ تَغييرُه. وإذا ما كان ثمّةَ حاجةٌ في نظام الخلقةِ، وكانَ ثمَّةَ استعدادٌ وإمكانٌ لتَلقِّيها «إذ قد تكونُ هناك حاجةٌ ولكنْ لا إمكانَ لتلقِّيها) فستُفاضُ، لأنَّ فيضَ اللهِ مُطلَقٌ»[1].

■ المَبحثُ الثّاني: المَعاييرُ القرآنيّة لبيان حكماء الدِّين الإسلاميّ

يقولُ -تعالى- في مُحكَم كتابه الكَريم: ﴿**وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى..**﴾ [الأنعام: 91].... فهذه الآيةُ تَنتقِدُ مُنكِري النُّبوّةِ والوَحي الإلهيِّ، والاستدلالُ على ذلك يكون كما يلي:

الاستدلالُ الأوَّلُ: يَقوم على قاعدة أنَّ مَن يَعرِفُ حقيقةَ الله -تعالى- لا يُمكِنُه البتّةَ إنكارُ وَحيِه على الأنبياءِ والمُرسَلينَ.. وهذا هو الاستدلالُ بالله على النُّبوة والوَحي.

الاستدلالُ الثّاني: هو الاستدلالُ بما هو قائمٌ ومَوجودٌ من شؤونٍ

1 - مرتضى مطهري: النبوة، ص.ص. 122-123.

وأمور وأشياءَ.. فالكتبُ السَّماويّةُ التي أنزلَها -تعالى- موجودةٌ، وهذا دليلٌ وشاهدٌ على النُّبوة..

وبالمُحصِّلةِ يمُكِنُ الاستنتاجُ من خلال الاستدلالَينِ السّابقَين أنَّ مُنكرَ النُّبوة لا يَعرِفُ اللهَ، ولا يُدرِكُ آثارَه الواضحةَ أمامَه، والتي تتمثَّلُ في الكُتب السَّماويّة، يقول -تعالى-: ﴿**قُل لَّوْ كَانَ فِى الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولا**﴾ [الإسراء: 95].. وقوله -تعالى-: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ [الحديد: 25].. فهُنا يُبيِّنُ -عزَّ وجلَّ- السَّببَ والعلّةَ الكامنةَ وراءَ إرسالِ الرُّسل وإنزالِ الكُتب السَّماوية، وهي تكمُنُ في إقامة العَدلِ وبَسطِ قُوّةِ الحقِّ بينَ النّاس.. فهذا أصلٌ ثابتٌ وراسخٌ في دعوات الأنبياء كلِّهم، والبشريةُ هي التي تَحتاج لقانون العَدل، ولهذا كانَت النُّبوّةُ، وكان الأنبياءُ؛ ولو كان بمَقدور البشريّةِ في كلِّ حركتِها ومَسيرتها التّاريخية العثورُ على طريقٍ آخَرَ لإحلال قانونِ العَدلِ في حياتها، لَما كان المَنطِقُ القرآنيُّ تامًّا، ولَما كان هناك أيُّ معنًى لقولنا: ما دامَت البَشريّةُ بحاجةٍ إلى القانون والعَدالة فقد أرسَلَ -تعالى- الرُّسُلَ وبَعثَ الأنبياءَ.

الفصل الثّالث:

مفهومُ الوَحي وخَصائصُه

تَنطلقُ المسألةُ الثّانية من بحثِ النُّبوّة العامّة، وما يتعلَّقُ به من مسائلَ فكريّةٍ وعَمليّةٍ، من خلال الدَّعوى الخاصّة بالأنبياءِ في وجود حالة ارتباط بينَهم وبينَ اللهِ -عزَّ وجلَّ-، وأيضًا من خلال الكَيفيّة التي يتلقَّونَ بها جملةَ التَّعاليم والأوامرِ والأحكام منه -تعالى-، وهذه الطَّريقةُ أو السَّبيلُ هي «مسألة الوحي».. وهنا نسأل: ما طبيعةُ هذا الارتباط الذي يتحدَّثُ عنه أو يُعلِنُه الأنبياءُ؟ وكيف يُمكِنُنا وَعيُه وتَفسيرُه؟!..

وإذا وصلنا إلى حدِّ الاعتقادِ والإيمانِ الكاملِ بهذا الارتباط القائم (ولكن الغامض) لفئةٍ مُحدَّدة وخاصّةٍ من النّاسِ، نَسأل: ما هي الطَّريقةُ الصَّحيحةُ للبَحث فيه، ونحنُ نَفتقدُه باعتبار أنَّه ارتباطٌ مَجهولٌ بالنِّسبة إلينا؟!..

وهذا ما سنَبحَثُه هنا مُحاولينَ تَفسيرَ الوَحي لغةً واصطلاحًا، ومُبيِّنينَ الخَصائصَ الأساسيّةَ للوَحي النَّبوي..

■ المبحثُ الأول: الوَحيُ في اللُّغةِ والقُرآن الكريم

أولًا- الوَحيُ لغةً

تَعني كلمةُ الوَحي في اللُّغة «الإلقاءَ الخَفيَّ»، السِّرِّيّ، الغامض، كما لو تحدَّثَ شخصٌ إلى آخَرَ خفيةً، وناجاهُ سِرًّا، لئلاّ يَطَّلعَ عليه الآخرونَ. وكلُّ ما يتَّسمُ بالغُموضِ والخَفاءِ على الآخَرينَ، كالإيماء والإشارة، يُسمَّى بحسب العُرفِ وَحيًا[1].. وحيث إنّ حقيقةَ الوَحي النَّبويِّ ليسَت من مَواردِ

1 - الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين، ج3، ص321. & الجوهري: الصحاح، ج6، ص2520.

الاستعمالِ العُرفيِّ العامِّ، وما هو موجود في اللُّغة هو مَعنًى قريبٌ من هذه الحَقيقة، لذلك يَنبغي ملاحظةُ الوَحي من خلال تتبُّعِ مَواردِ استعمالِه في القرآن[1]، ذلك أنَّ المَعنى اللُّغويَّ والعُرفيَّ يَحمل في طيّاته عادةً مفهومًا أعمَّ وأوسعَ من المَعنى المُصطلَحِ الذي استعملَه الأنبياءُ سلامُ اللهِ عليهم.

ثانيًا- مواردُ الوحي في القرآن الكريم

الوحيُ في القرآن حقيقةٌ وتعبيرٌ حيٌّ عن حالة من الهداية القائمة في كلِّ الأشياء، جاء في الآية الكريمة: ﴿**وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا**﴾ [فُصّلت: 12].. وهذه الهدايةُ هي مَظهَرٌ من النُّورِ الرُّوحيِّ والرَّمزيِّ المَعنويِّ الذي يُصاحِبُ كلَّ الموجودات، ويُسهِمُ في هدايتِها ضمنَ مسيرتِها في الحياة..

بهذا المعنى، تُوجَدُ للوَحي مَجموعةُ درجاتٍ ومَراتبَ وُجوديّة، تكونُ على حسبِ مَرتبةِ الكائنِ في سُلَّمِ الوُجودِ، فالهدايةُ المَوجودةُ في النَّباتات ليسَت مثلَ الهدايةِ في الحيوان، وما هو موجودٌ عند الحَيوان يَختلفُ عمّا هو مَوجودٌ عندَ الإنسان. وهذا يَعني أنَّ الوَحيَ حقيقةٌ حيّةٌ واقعةٌ تَختزنُها كافّةُ المَوجوداتِ بنِسَبٍ ومَعاييرَ مُختلفة.. والأعلى فيها هي تلك التي يتلقّاها الأنبياءُ من عالَمِ الغَيبِ.

■ المَبحثُ الثّاني: وَحْيُ النُّبوّة

لا يُمكِنُ الوقوفُ على طبيعة الوَحيِ النَّبويّ (وحي النُّبوة) بالتَّجربة والعِلمِ

1 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص.ص. 133-134.

الماديِّ، ولا عن طريق الاستدلال العَقليِّ، بل من خلال أقوال وأحاديث أولياء الوَحي، وبعدَ ذلك يُمكِنُنا فَحصُ وإخضاعُ تلك الأقوال للتَّفسير العلميِّ.

لقد أعطانا كتابُ الله (القرآن الكريم) معنًى عامًّا للوَحي، يَشتملُ على أوجُه وحالات مُتعدِّدة، منها بعضُ حالات وأوجُه الوَحي التي يُمكِنُ أن نَعيَها وتَدخُلَ في مجال خبرتنا، وهذا يُسعدُنا كثيراً في مقاربة حقيقة هذا الوَحي النَّبويِّ بشكلٍ أو بآخَر.. ولا يَلزَمُ لأجل الإيمان بالوَحي أن نُحيطَ بحَقيقته، فالوَحيُ من مُختصَّات الأنبياء، ولا سبيلَ لنا إلى بلوغ كُنهِه بنَحو قَطعيٍّ[1].

جاء عن الرَّسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم): «الرُّؤيا الصّادقةُ جُزءٌ من سَبعينَ جُزءٍ مِنَ النُّبوّة»[2]، وهذا يَعني أنَّ الوحيَ إلهامٌ، مثلُه مَثَلُ باقي الإلهامات التي تَسري وتنتابُ البشرَ، ولكنْ يتميَّزُ أو يَختلفُ عنها درجةً ومرتبةً.. ويُفيدُنا الحديثُ في أنَّ الرُّؤيا الصّادقةَ هي نورٌ ضَعيفٌ، في حين أنَّ الوَحيَ النَّبويَّ نورٌ قويٌّ يَفوقُ النُّورَ الأوَّلَ بسَبعينَ ألفَ مرّةٍ.

■ المَبحثُ الثّالث: الخَصائصُ الأساسيّةُ لوحي النُّبوّة

يُمكِنُنا تَثبيتُ هذه الخصائص في الآتي:

أولاً- الجنبة الداخليّة للوحي

يَختلف تلقِّي الرُّسلِ والأنبياءِ للوَحي عن تلقِّي بقيّةِ البشرِ

1 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص142.

2 - الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج2، ص585.

للمَحسوسات، فالنبيُّ يُوحى إليه باطنًا، على حين أنَّنا نتلقَّى المَحسوسات من خلال إدراكاتنا الظّاهريّة (الحواسّ المادية).. قال -عزَّ وجلَّ-: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ¤ عَلَى قَلْبِكَ...**﴾ [الشعراء: 193-194]. وقد وصلَنا من بعض الحالات، التي تجلَّت في الوَحي، أنَّ الحواسَّ عندَ النبيِّ كانَت تتوقَّفُ خلالَ نزول الوَحي عليه، حيثُ كانَتْ تَنتابُهُ غشيةٌ.. وهذا ما يُمكِنُ تَشبيهُهُ بالرُّؤيا الصّادقة، والتي تتمثَّلُ في حالة كون العَين مُغلقةً والإنسان لا يَسمع. ولا بدَّ من التَّسليم هنا أنَّ حالةَ التَّلاقي بينَ رُوح الإنسان ومَن يأخُذُ به رُوحيًّا (يُطلعُه) على عالَم الغَيب، لا يأتي ولا يَحصل بالحواسِّ، بل عن طريق ذاتيٍّ باطنيٍّ جوّانيٍّ، «كما أنَّ جميعَ الغَرائزَ وضروبَ الوَحي ذاتُ جنبة داخليّة، ففي باطن النَّباتات قوّةٌ تُوجِّهُها، وفي أعماق الحيوانات غريزةٌ تَقودها. وهذه السِّمةُ الدّاخليّةُ للوَحي هي عنصرٌ مُشتركٌ بين جميع هذه الحالات»[1].

ثانيًا- وجودُ المُعلِّم

الأمرُ الأساسيُّ والثابتُ في موضوع الوَحي النَّبوي أو وَحي الأنبياء أنَّه لا يَنبثِقُ من نفس النبيِّ أو ذاته، بل يتمُّ تلقِّيه عبرَ مُعلِّم غير بشريٍّ، بعيد عن عالَم الطَّبيعة المَعروفة، يَقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**﴾ [النجم: 5]... ويُؤكِّدُ القرآنُ على هذه المَسألة في الآيات:

1 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص148.

﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ﴾ [هود: 49].. ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: 113]، ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: 5].. وهذا يَعني أنَّه تَعليمٌ من قِبَلِ مُعلِّمٍ –شديد القُوى- سواء جاء من الله أم جبرائيل أم غيرهما.. وبهذا المَعنى لا يكونُ الوَحيُ أيضًا حالةً غريزيّةً مثلَ تلكَ المَوجودةِ في الكائنات والحيوانات حيث لا تَعليم ولا تعلُّم، وليس من قَبيلِ الإلهامات الحاصلةِ لعددٍ مَحدودٍ من النّاس، كما هو الحاصل مع بعضِ العُلماءِ ممَّن يَزعمون أنَّهم تَعرَّضُوا لحالات إلهامٍ بشكلٍ فجائيٍّ.. أمّا في حالة الوَحيِ فإنَّ الأنبياءَ يَشعرونَ بوُجودِ مَن يُعلِّمُهم ويُقدِّمُ لهم الأفكارَ، والتَّصريحُ بهذا جاء من قِبَلِ الأنبياءِ أنفسِهم.

ثالثًا- استشعارُ مصدر الوَحي

إنَّ النبيَّ يَشعرُ ضمنيًّا –حالَ تلقِّيه الوَحيَ- أنَّه يَتلقّاهُ من مصدر آخَرَ، وهذا يُماثِلُ ما نَشعُرُ به نحن مثلاً حالَ جلوسِنا أمامَ إنسان يتحدَّثُ، فنُدركُ أنَّنا أمامَ إنسان بشريٍّ هو من المَوجودات الكائنة في عالَم الطَّبيعة المَحسوس، الذي نَراهُ ونُعاينُه ونُصغي إليه ونتعلَّمُ منه، كذلك النبيُّ، مع فارق أنَّ مُعلِّمَه ليس من عالَم الطَّبيعة، بل من عالَم آخَرَ.. والنَّبيُّ عندَما يأتيهِ الوَحيُ، ويتلقَّى منه، يَعلَمُ في اللَّحظة ذاتها، أنَّه يَستمدُّ الوحيَ من مصدرٍ عُلْويٍّ خارجٍ عن نفسه. وهذا ما يُشيرُ إليه القرآنُ في قوله -تعالى-: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: 114]، حيث

إنَّ النبيَّ الأكرمَ كانَ يُبادرُ إلى تكرار ما يتلقّاه من الوَحي خشيةَ أن يَنسى ما يُوحى إليه، ولكنَّ اللهَ ضَمِنَ له ألا يَنسى ما يأتيه عبرَ الوَحي، يَقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسى**﴾ [الأعلى: 6]..

رابعًا- إدراكُ واسطة الوحي

تحدَّثَ الأنبياءُ في موضوعِ الوَحي عن أنَّهم كانوا يتلقَّونَه منه -تعالى- عبرَ وَسيطٍ اسمُه "الرُّوح الأمين" أو "روح القُدس" أو "جبرائيل".. هذا لا يَعني أنَّ الوَحيَ المباشرَ من الله -تعالى- إلى النَّبيِّ مباشرةً كانَ مُنقطعًا بشكلٍ دائم، بل كانَت هناك حالاتٌ ومُستوياتٌ كان الرَّسولُ (صلى الله عليه وآله) يتلقَّى فيها الوحيَ من الله بشكل مباشر دون واسطة.

■ المَبحثُ الرّابع: مَاهيّةُ الوَحي وحقيقتُه

ربمَّا من المُهمِّ الإشارةُ هنا بدايةً إلى ما ذكرَهُ بعضُ العلماءِ والمُفكِّرينَ من الصُّعوبةِ أو عدمِ القُدرة على الإحاطةِ الكاملة بجَوهر معنى الوَحي وحقيقته وكُنهه.. والمَعرفةُ الحقيقيّةُ به تَقتصر فقط على الرُّسل والأنبياء باعتبارهم جزءًا منه، أي أنَّهم يتلقَّونَه من الله أو بواسطةِ المَلَكِ جبريل. ولعلَّ من أهمِّ الأسبابِ الكامنةِ وراءَ هذا أنَّ نمطَ العلاقةِ بين الوَحي والمُوحى إليه ليسَ من طبيعة العلاقات المألوفةِ والمَعروفةِ بينَ النّاس، أو بينَهم وبينَ سائرِ الكائنات.

أولًا- النَّظريّاتُ في وحي الأنبياء

هناك ثلاثةُ مُستويات تصوُّريّة في هذا السِّياق:

1 - مستوى التصوُّر العامِّيّ

يتوهَّمُ النّاسُ – حالَ ذكرِ الوَحي أمامَهم- أنَّ اللهَ -تعالى- موجودٌ في مكان بَعيد جدًّا في أقصى أقاصي أعالي السَّماء.. وأنَّه إذا ما أراد تَوصيلَ تعاليمه وأحكامه إلى نبيٍّ من الأنبياء فإنَّه يَبعثُ كائنًا بجَناحَين يمُكِّنانه من طيِّ تلكَ المسافة الشّاسعة بلَمح البَصر.. وللأسف فإنَّ هذه النَّظرةَ قائمةٌ ومُترسِّخةٌ في أذهان كثير من البشر، ووَفقًا لهذا التصوُّر العاميِّ، يَجبُ أن يكونَ لهذا الكائنِ بُعدٌ إنسانيٌّ لكي يَكونَ باستطاعته حملُ أمرِ الله إلى الأنبياء..!!.

2 - مستوى تصوُّر التَّنويريِّين

هناك فئةٌ من المُفكِّرينَ الحَداثيِّينَ أو التَّنويريِّينَ يَعتقدونَ أنَّ كلَّ أحاديث الوَحي ونُزول المَلائكة والإلقاء في نفس النبيِّ والتَّشريعات السَّماوية، وغيرها ممّا يَرتبطُ بمَوضوع الوَحي، إنَّما هي مُجرَّدُ تعابيرَ مَجازيّة تتمُّ الاستعانةُ بها للتَّواصُل والمُخاطبة مع عوامِّ البشر، لتَقريب الأمور لهم.. ويُؤمنُ هؤلاء بأنَّ النبيَّ ليسَ إنسانًا عاديًّا، بل هو نابغةٌ اجتماعيٌّ مُحبٌّ للخَير ويتطلَّعُ لتَغيير أحوال مُجتمعه ومُحيطه الذي يَعيش فيه.. وعلى صعيد معنى الوَحي يَعتقدُ التَّنويريُّونَ بأنَّ ما يُسمَّى بالرُّوح القُدس -كما يزعمون- ليسَ سوى الرُّوح الجوّانيّة الباطنيّة لهذا النبيِّ النّابغة، والإلهامُ يأخذُه من هذا الباطن، ولا يأتيه من أيِّ مَوقعٍ آخَر..

ولَمّا كانَت مثلُ هذه الإلهامات تَنطلقُ من داخل أعماق هذا النّابغة، ثم تَخرج إلى السَّطح، فنظنُّ (ويَظنُّ النّاسُ) أنَّ الرُّوحَ الأمينَ هو مَن جاء بها من عندِ الله..!!..

وبحسب هذه الرُّؤية للتَّنويريِّينَ، يأتي معنى الوَحي ليَكونَ مُجرَّدَ تَفجُّرٍ وانبثاق من عُمق رُوحِ النبيِّ إلى ظاهرِ فِكرِه ووَعيِه الخارجيّ..

إذنْ هذه النَّظريةُ تتقوَّمُ بالتأويل لكلِّ ما جاءَ عن العلاقة بينَ الله والنبيِّ.. وهذا التَّفسيرُ يَقع في النُّقطةِ المقُابلةِ للنَّظريّةِ العامّيّة، وهو وإنْ كانَ لا يَتوخَّى إنكارَ النُّبوّة، إلاّ أنَّه يَرفض الإذعانَ بوُجودِ حقيقةٍ ما وراءَ عقلِ الإنسانِ ورُوحِه، ويُنكِرُ الإيمانَ بأيِّ بُعدٍ غيرِ عاديٍّ[1].

3 - مستوى نظريّة الاتِّصال بالعالَم الآخَر

تَرى هذهِ النَّظريّةُ أنَّ جميعَ البشرِ لَدَيهم إدراكاتٌ حسِّيّةٌ باطنيّةٌ، إضافةً إلى العقل والحسِّ العاديَّينِ.. ويَختلف مَنسوبُ (ودرجة) الحسِّ الدّاخليِّ الباطنيِّ من إنسانٍ لآخَرَ، فقد يكون عاليًا عند شخصٍ، وضَعيفًا عند آخَر..

وقد تصلُ قُوّتُه عند إنسان ما حدًّا يَجعلُه مُؤهَّلاً ليَتَّصِلَ واقعيًّا وعمليًّا بالعالَم الآخَرِ، فتَنفتح له أبوابُ ذلك العالَم بصورةٍ واقعيّة غيرِ خياليّة. وهذا أمرٌ لا علاقةَ له بالفعاليّةِ الوُجوديّةِ للشَّخص، ولا بنُبوغِه الشَّخصيِّ، بل علاقتُه تكونُ بمَدى حيازتِه وامتلاكِه القابليّةَ للتَّواصُلِ

1 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص56.

بالعالَم الذي هو خارجَ مُحيطِه الذّاتيّ. وهذه الرُّؤيةُ أو النَّظريّةُ هي مَوضِعُ تَرحيبٍ وتبنٍّ من قِبَلِ عرفانيِّي الإسلام وحُكمائه الكِبار، ممَّن يُؤمنونَ بأنَّه يُوجَدُ في باطنِ كلِّ إنسانٍ مُؤهِّلاتٌ وقابليّاتٌ واستعداداتٌ للكشفِ والاطِّلاعِ على عوالِمَ أُخرى وراءَ عالَمنا هذا، والاتِّصالِ معها، وقد تصلُ حدودَ تلقِّي الإلهامات، ولكنَّها لا تَصل حدَّ الوَحي، بل هي مَرتبةٌ أقلُّ منه.

ويَذكُرُ القرآنُ الكريمُ مثلاً واضحًا هنا وهو أنَّ السيِّدةَ مَريَمَ (والدةَ النبيِّ عيسى)، وكذلك والدةُ النبيِّ موسى، كانتا على تواصُلٍ واتِّصالٍ مع العالَمِ الآخَرِ، مع عدمِ كونِهما من الأنبياء.. حيثُ إنَّ الملائكةَ كانَت تَظهر للسيِّدةِ مريمَ وتتحدَّثُ معَها: ﴿**إِذْ قالَتِ المَلائكةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّه اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ ¤ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ [آل عمران: 42-43].

وهذا يَعني أنَّه يُمكِنُ لغَيرِ النبيِّ أن يَطَّلِعَ على عالَمِ ما وراءَ المادّة، ويَتواصل مع الملائكة.. يقول الإمام عليٌّ (عليه السلام) الذي كان يتلقَّى مقدارًا من الحَقائق من عالَمِ الغَيبِ بدون واسطةِ النبيِّ (صلى الله عليه وآله وسلم): "ولَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ، فَأَرَاه ولاَ يَرَاه غَيْرِي...، أَرَى نُورَ الوَحْيِ والرِّسَالَةِ، وأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوّة، ولَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الوَحْيُ عَلَيْه"[1].. وقد ذكرَ حالتَه هذه للنبيِّ فأجابَه (صلى الله عليه وآله وسلم): «إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وتَرَى مَا أَرَى، إِلاَّ

1 - الشريف الرضيّ: نهج البلاغة، الخطبة 192، ص.ص. 300-301.

أَنَّكَ لَسْتَ بنَبِيٍّ»[1]. وهذا الصَّوت ليسَ من السّنخ العاديِّ بحيثُ لو كانَ هناكَ غيرُه لَسَمعَه.

إذنْ، آمنَ الحكماءُ بوجودِ عالَمَينِ واقعيَّين، هما:

1. عالَمُ الطَّبيعة، الذي هو عالَمُ الحسِّ والأبعادِ المادية والجسميّة، عالَمُ التحرُّكِ والتَّغيُّرِ والتَّبدُّل.
2. عالَمُ ما وراءَ الطَّبيعة، ولهذا العالَمِ قَهرٌ وسَيطرةٌ وفَوقيّةٌ واقعيّةٌ على عالَمِ الطَّبيعة، بحيث لا يُعدُّ عالَمُ الطَّبيعة أكثرَ من رشحٍ وظلٍّ له، وكلُّ ما هو مَوجودٌ في عالَمِ الطَّبيعة إنَّما يُنَزَّلُ من ذلك العالَمِ وهو مَعلولٌ له: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**﴾ [الحجر: 21]..

ومن مجالٍ وسياقٍ آخرَ، يُمكنُنا القولُ بأنَّ هذه الرُّؤيةَ أو النَّظريّةَ الحَكَميّةَ تتأسَّسُ على فكرة الإيمان بأنَّ وجودَ الإنسان يتعدَّى حدودَ المادّة والأبعادَ المكانيّةَ، فهو مُكوَّنٌ من رُوحٍ وله استعداداتٌ وقابليّاتٌ رُوحيّةٌ من وَجهين:

1. وجه إلى الطَّبيعة الحسِّية القائمة أمامَه والمُحيطة به، حيث يتحدَّدُ ارتباطُه بالطَّبيعة من خلال حواسِّه وإدراكاته الماديّة، التي هي وسائلُه وأدواتُه بالمُحيط الطَّبيعيّ، وما يَحصل عليه من خلال حواسِّه يَقوم بتَجميعه في ذاكرته.. ثمَّ يَدفَعُ به إلى مرحلةٍ أرفعَ، حيث يُسبِغُ عليه الكلِّيَّةَ والتَّجريدَ والتَّعميمَ.

1 - الشريف الرضيّ: نهج البلاغة، الخطبة 192، ص301.

2. ووجه تتسانخُ فيه الرُّوح مع عالَم ما بعدَ الطَّبيعةِ، فمعَ كلِّ تَرَقٍّ يُحرزُه الإنسانُ من هذا الوَجه، يُمكِنُه أن يتواصل أكثرَ مع ذلك العالَمِ ما بعدَ الطَّبيعيّ[1].

1 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص.ص. 58 و65 و153.

الفصل الرَّابع:
المُعجزةُ والنّظريّات حولها

■ المبحثُ الأول: مَفهومُ المُعْجزة.. النَّظريّة التّأويليّة

لا يمُكِنُ إثباتُ الوَحي –على مستوى الأنبياءِ المُوحَى إليهم- من دون وُجودِ دَلائلَ وقرائنَ على شكلِ آياتٍ وبيِّناتٍ يأتي بها كلُّ نبيٍّ على حِدَة، وهو ما يُطلَق عليه "المُعجزة".. فما هي حقيقةُ المُعجزة؟! وعلى يدِ مَن تأتي؟! وما هي وظيفتُها؟! وما مَدى إمكانها؟!!..

في هذا السِّياقِ يُعرِّفُ المادِّيّونَ المُعجزةَ على نحوٍ يُمكِنُ أن يُستَشَفَّ منه أنَّها حدوثُ واقعةٍ مُعيَّنة في العالَم من دون وجودِ علّةٍ ومُسبِّبٍ واضحٍ لها، وكأنَّها مُجرَّدُ صدفة.. مع أنَّ الصُّدفةَ أمرٌ مُستحيلٌ أو غيرُ مُمكِنٍ.. إنَّنا نَعتقِدُ أنَّه من الضَّروريِّ التَّعاطي مع موضوعِ المُعجزةِ من حيثُ أنَّها حدَثٌ مُستنِدٌ لعلّةٍ وسَبب، وإلا فإنَّه لن يَكون بمَقدورنا وعيُ وفَهمُ دورِ المُعجزةِ ووَظيفتِها في إثباتِ النُّبوة.. ولهذا يمُكِنُنا القولُ بأنَّه التَّفسيرُ الذي يَقود إلى اعتبارِ المُعجزةِ مُرادِفةً للصُّدفةِ، هو تَفسيرٌ مُجانِبٌ ومُخالِفٌ لمَنطقِ ورُؤيةِ الدِّينِ نفسِه..

■ المَبحثُ الثّاني: تعريفُ المُعْجزة

أولًا- المُعْجزة في اللُّغة

وردَ في معظمِ معاجمِ اللُّغة العربيّة أنَّ المُعجزةَ هي ما «يُعجزُ البشرَ أنْ يأتوا بمِثْله، أو فقلْ ما يُقصِّرُ الآخَرونَ عن الإتيانِ بمثلِه ولا يَقْدرونَ عليه»[1].. وما يَجبُ ذكرُه هنا أنَّ كلمةَ «المُعجزة» لم يَرِدْ أساسًا في القرآنِ الكريمِ بنفسِ اللَّفظِ، بل عُبِّرَ عنها بكلمة "الآية"، أي العلامة التي تُعَدُّ بمثابة

1 - الخليل بن أحمد الفراهيدي: مادة العين، ج1، ص215.

دليلٍ على مِصداقيّةِ دَعوةِ النَّبيِّ.. وقد تمَّ ذِكرُ كلمةِ المُعجزةِ كمُصطلَحٍ من قِبَلِ عُلماءِ الكلام المُسلمينَ الذين استعملوها واستَخدموها في كتاباتهم وشروحاتهم..

من هنا تأتي المُعجزةُ لتكونَ تحدِّيًا من قِبَلِ النبيِّ في مُواجَهةِ مَن يَرفضونَ نُبوَّتَه، أو هي دليلٌ على صِدقِ مُدَّعاهُ باتِّصالِه بعالَمِ الغَيبِ.. ولكنَّ العَجزَ عن المُجاراةِ في الأفعالِ لا يَختصُّ بالإعجازِ النبويِّ، بل ثَمَّةَ في كلِّ اختصاصٍ علميٍّ أو أدبيٍّ أو صناعيٍّ مَن يُحرزُ قصبَ السَّبقِ في التفوُّقِ على الآخَرين، بحيث يَعجزونَ عن مجاراتِه، ومع ذلك لا يُعَدُّ عملُه هذا مُعجزًا في الاصطلاحِ الكلاميِّ، وإنْ كان مُعجزًا بالمَعنى اللُّغويّ[1]. فما هو المُعجِزُ في الاصطلاحِ الكلاميِّ؟!.

ثانيًا-المُعجِزةُ في الاصطلاح

تَعني المُعجزةُ اصطلاحًا: ذلكَ الفعلَ الذي يَختَزِنُ في داخِلِه مَظهرًا غيبيًّا لا يُمكِنُ للبشرِ فعلُه، وهو خارجَ حدودِ قُدراتهم وقابليّاتهم.. وهو ليس من قَبيلِ الأعمالِ البشريّةِ التي يَعجز بعضُهم عن بلوغِ دَرجاتها الفائقة. وثَمَّةَ فرقٌ كبيرٌ بين أن نَعُدَّ المُعجزَ من سنخِ العملِ البشريِّ بيدَ أنَّه يتَّصفُ بكونِه عملاً من الدَّرجةِ الأولى، وبين أن يكون المُعجِزُ خارجًا عن سنخِ العملِ البشريِّ، وفوقَ حدودِ القُدرةِ الإنسانيّة[2].

1 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص.ص. 172-173.

2 - م. ن. ص.ص. 174-175.

وحتَّى نَفهَمَ المسألةَ نُشيرُ إلى ما ذَكرَهُ القرآنُ الكريمُ حول حادثة "شقِّ البَحر" للنبيِّ موسى عليه السلام، عندَما أشارَ بعَصاهُ إلى البَحر، فتجمَّدَت المياهُ كالجِدار، ومَشى هو وأصحابُه وأبناءُ قومه حتَّى نجَوا من فرعونَ وجُنده الذين غَرِقُوا في البَحر، بعدَ وصوله عليه السَّلام -معَ صحبه- إلى الضِّفَّة الأُخرى.. وهذا الفعلُ هو مُعجزةٌ حقيقيّةٌ لا يُمكنُ لأحد أن يَقول إنَّه ناجمٌ عن حالة ذكاء وتفوُّق بشريٍّ كبيرة.. بحيث يكونُ من المُمكن للجميع أنْ يأتوا بمثل هذه الأفعال المُعجزة..

من هنا يُمكنُ تَعريفُ المُعجزة بأنَّها «فعلٌ وأثرٌ يأتي به النبيُّ للتحدِّي، أي لإثبات مُدَّعاهُ، ليَكونَ علامةً على وجود قُدرة ماورائيّة في إيجاده، تَفوقُ حُدودَ الطّاقة الإنسانيّة بشكلٍ عامٍّ»[1].

ثالثًا - المُعجزةُ في القرآن الكريم

لم يَخْلُ تاريخُ النُّبوّات من المُعجزات التي تَرافقَتْ مع بعثات الرُّسل والأنبياء، وقد ذكَرَ القرآنُ الكريمُ كثيراً من الوقائع والحوادث التاريخيّة المُعجزة التي جاءَت لتأييد تلكَ الدَّعوات، كالعَواصف العاتية وأشكال عديدة من الموت والهَلاك الذي لَحِقَ ببعض المُجتمعات والأمم السّابقة إثرَ دُعاء من نبيٍّ أو رسول.. وتأتي قصّةُ ناقة النبيِّ صالح كإحدى القصَص التاريخيّة المُهمّة التي أوردَها كتابُ الله بالنَّظر لما تَحتويه من أبعاد مُهمّة وغيرِ عاديّة.. يقولُ -تعالى-: ﴿**هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي**

1 - مرتضى مطهري: النبوة، ص172.

أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ ...﴾ [الأعراف: 73].

كما تحدَّثَ القرآنُ عن مُعجزاتٍ للنبيِّ مُوسى، وهي مُعجزاتُ تَحوّل العَصا إلى ثُعبان، واليَد البيضاء، وانفلاق البَحر، والآيات التِّسع، يَقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ**﴾ [الإسراء: 101].

وكذلك أشارَ القرآنُ للمُعجزاتِ في عهد النبيِّ عيسى (عليه السلام)، كأنْ يَخلق من الطِّينِ كهَيئة الطَّيرِ بإذن الله، وغيرها ممّا لا يُمكِنُ تَفسيرُهُ وتأويلُه بأيِّ وجهٍ من الوُجوه..

وهذا كلُّه يُعطينا فكرةً عن أنَّ المُعجزةَ وخرقَ المألوفِ والعادةِ من الأمور التي تواترَت وظهرَت على مسرحِ التّاريخِ خلالَ عهودِ الأنبياءِ والرُّسل.. حيثُ إنَّ كلَّ رسولٍ أو نبيٍّ جاءَ وادَّعى الرِّسالةَ لم يأتِ من دون تأييدٍ وتَسديدٍ رَبّانيٍّ من مُعجزاتٍ وغَيرِها.

رابعًا- نظريّات تَفسير المُعجزات

طرحَ المسلمونَ أسئلةً كثيرةً عن المُعجزة، في طبيعة تكوينها ووُجودِها وأسبابها، وحاولوا تقديمَ إجاباتٍ ونظريّاتٍ تُفسِّرُها وتُعلِّلُها بما لا يتعارضُ مع إيمانهم وقناعتِهم بها.. ومن أهمِّ تلك الرُّؤى والنَّظريّات:

1 - النَّظريّة التأويليّة

أ- مفهوم النَّظريّة التأويليّة:

ظهر تيارٌ فِكريٌّ وفلسفيٌّ سَمَّى نفسَه بالتيّارِ التَّنويريّ، قدَّمَ تَفسيراً

للمُعجزةِ يُؤدِّي في النِّهاية لنَفي حصولها.. فقد اعتبرَ أصحابُ هذا الخطِّ أنَّ المُعجزةَ ليسَت سوى خرافةٍ ووَهمٍ غيرِ قابلٍ للتَّحقُّق.. وبرَّرَ هؤلاءِ رؤيتَهم أو تأويلَهم هذا بالاستنادِ إلى قَرينتَين أو شاهدَين من القرآن نفسه:

القرينة الأولى: وجودُ آيات قرآنية تدلُّ على عدمِ استجابة الرَّسول (صلى الله عليه وآله) لطَلبِ خَرقِ العادة، حيث يُصرِّحُ بأنَّه إنسانٌ بشريٌّ مثلُهم، ولا يَختلفُ عنهم، يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ**﴾ [الكهف: 110]... وقوله -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ¤ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ¤ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلًا ¤ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولا**﴾ [الإسراء: 90-93].

القرينة الثانية: وجودُ كثيرٍ من الشَّواهد القرآنيّة على أنَّ نظامَ الحياة والوُجودِ أقامَه اللهُ -تعالى- على العلّة والسُّنَن والقَوانين الرّاسخة التي لا تتغيَّر، يَقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا**﴾ [الأحزاب: 62]، وقوله: ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا**﴾ [فاطر: 43].

وكلمةُ "لن" تُفيدُ النَّفيَ التأبيديَّ، والمُعجزةُ بما هي تنطوي عليه من خَرقٍ للعادة تبديلٌ للسُّنّة الإلهيّة وللقانونِ السّائدِ الذي وضعَه الله، ولذلك فهي مَنفيّةٌ بحسبِ تَصريحِ الآياتِ الواضحة.

ب-الرَّدُّ على الرُّؤية والنَّظريّة التّأويليّة:

هناك آياتٌ قرآنيّةٌ في كتابِ الله تتحدَّثُ على ألسنة الأنبياء أنَّهم بشرٌ مثلُ بقيّة البَشر، فلا بدَّ هنا من التَّدقيق والتأمُّل فيها، لجهة ما قد تُظهِرُه من وجودٍ أو عَدمٍ وجودِ حالةِ عَجزٍ عندَ الرُّسلِ تُجاهَ مسألة الإتيان بمُعجزات يَطلبُها النّاسُ منهم، بحسب ما يَزعُمُ أتباعُ هذه الرُّؤية التأويلية.. فهل يُوجَدُ تناقُضٌ ما بينَ بشريّةِ النبيِّ وإتيانه بالمُعجزات؟ وإنْ لم يكن هناكَ أيُّ حالةِ تناقُضٍ بين الأمرَين، فما السَّبيلُ للجَمعِ بينَهما؟!..

جاء في القرآن الكريم هذه الآية التي تتحدَّثُ عن بشريّة النبيِّ، حيث يُخاطبُ النبيُّ النّاسَ أنَّه إنسانٌ مثلُهم، له ما لَهم، وعليه ما عَليهم: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ**﴾ [الكهف: 110]... كما تُوجَد في القرآن الآيةُ الكريمة التالية التي تُفصِّلُ أكثرَ في الموضوع، يقول -تعالى- في سورة بني إسرائيل (الإسراء) بشأن النبيِّ الكريم (صلى الله عليه وآله) وقريش: ﴿**وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ¤ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ¤ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلًا ¤ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولا**﴾ [الإسراء: 90-93].. ومفادُ الآية أنَّ القرشيِّينَ واجَهوا النبيَّ بطَلَبِ أن يأتيَهم بستِّ مُعجزات، فأجابَهم بأنَّه بشرٌ مثلُهم.. وكلُّ مَن يُنكِرُ المُعجزةَ يتمسَّكُ بهذا الجوابِ الواردِ على لسانِ النبيِّ الكريم (صلى الله عليه وآله) كدَليلٍ على عدمِها..

وفي ردِّ هذا الاستدلال لمُنكري المُعجزة، نُؤكِّدُ على أنَّ الآيات السّابقةَ لا يَتناقضُ فيها حالةُ بشريّةِ النبيِّ مع إتيانه بالمُعجزة.. وهنا يمُكنُنا الإشارةُ إلى عدّة شُروح وبيانات:

البيانُ الأوَّلُ: يتعلَّقُ موضوعُ تلبية طلب النَّاس للمُعجزة بالدّافع الإيمانيِّ، الذي إنْ وُجد لديهم، فحَتمًا ستتمُّ الاستجابةُ لطَلَبهم، لأنَّه سيكونُ مَدخلاً للإيمان به وبرسالته.. ولكنَّ هؤلاء الذين طلبوا وواجهَهُمُ النبيُّ بقوله إنَّه بشرٌ مِثلُهم، لم تكنْ طلباتُهُم إيمانيّةً، ولو كان لديهم الاستعدادُ للإيمان لَما ابتكروا هذا النَّوعَ من المَطالب الغَريبة العَجيبة التي تتوزَّعُ على ما يلي:

1. طلبُهم للأشياءِ المُستَحيلة وغيرِ القابلة للتحقُّق، كطلَبهم إحضارَ الله والملائكة.
2. طلبُهم الفاقدُ للمَعنى والقيمة والهَدف، كطلبهم من النبيِّ أن يَنطلقَ إلى السَّماء ويأتيَ بخطاب من قِبَل الله..!!.
3. طلبُهُم القائمُ على المَنفعة والمَصلحة والمُقايَضة بالإيمان.. كطَلَبهم تَفجيرَ يَنبوعٍ من الأرض، وما يَنشدونَه من رشوة ومال مُقابلَ أن يُؤمنوا له لا به، حيث قالوا: "لن نُؤمنَ لكَ»، ولم يَقولوا: "لن نُؤمنَ بكَ». وبإزاء مَنطق المُقايَضة هذا، جاء الجوابُ: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولا**﴾. هنا يَرفضُ الرَّسولُ الكريمُ المُقايَضةَ من أجل حصوله على المَنفعة الخاصّة به.. وجوابُه (صلى الله عليه وآله) لا يَنفي أنَّه قادرٌ على الإتيان بفعلٍ خارقٍ للمألوف والسّائد.. إنَّ ردَّ النّبيِّ الأكرم (صلى الله عليه وآله) على مَن طالبَه بالمُعجزات يُؤكِّدُ على أنَّه (صلى الله عليه وآله)

لا يُمكِنُ أن يَتعاملَ نَفعيًّا في قضيّةِ الإيمان مع أيٍّ كان.

البيانُ الثاني: المُعجزةُ ليسَت أمرًا مُستمرًّا ودائميًّا، وهي ليسَت غبَّ الطَّلب لدى كلِّ نبيٍّ.. بل هي آيةٌ من آيات الخالقِ العَظيم، والأنبياءُ لا يأتون بأيِّ فعلٍ مُخالفٍ للسُّنن والنَّواميس الطَّبيعية إلَا بإذن الله، وبحسَبِ ما تَقتضيه الضَّرورةُ لجهة الإيمان والتَّسديد الإلهي وإظهارِ عظمةِ الخالقِ وقُدرته عزَّ وجلَّ.

البيان الثالث: يَجب أن يكون واضحًا أنَّ ما جاء به النبيُّ الكريمُ من دعوةٍ إيمانيّةٍ ومَطالبَ عَقائديّةٍ كانَ شديدَ الوضوحِ، بما يَعني انتفاءَ أي حاجةٍ للمُعجزة.

أمّا الدَّليلُ الثّاني لأصحابِ هذه الرُّؤية، فقد أوردَ بعضُهُم عليه بأنَّ الذي لا يتغيَّرُ -بحَسَب مَنطقِ القرآن- هو القانونُ المُتعلِّقُ بمَوضوعَي الثَّواب والعقاب؛ وأمّا «قانون الخلقة ونظام التَّكوين فلا دليلَ في القرآن على أنَّه لا يتغيَّر، فالسُّننُ في القرآن تختصُّ بالمَسائلِ التي ترتبطُ بتكليف العباد، وسنّة الله في إنزال العُقوبة بالمُسيءِ وإثابة المُحسنِ لن تتغيَّرَ أبدًا. ويُؤكِّدُ هذا الأمرَ السِّياقُ القرآنيُّ للآيات التي تحدَّثَت عن عدمِ تغيُّرِ السُّنن الإلهيّة»[1].

■ المَبحثُ الثالث: النَّظريّة الوَضعيّة

أولًا- في مضمون النَّظرية الوَضعية

هذه النَّظريةُ يقول بها الأشاعرةُ، وهي تأتي في مقابل نظريّةِ التّأويل..

1 - مرتضى مطهري: النبوة، ص187.

حيث يَعتقد أصحابُها بأنَّ قوانين الطَّبيعة ونواميسَ التّاريخ هي مشيئةٌ إلهيّةٌ، وأنَّ اللهَ -عزَّ وجلَّ- يمُكِنُ أن يأتيَ بمُعجزةٍ تَخرق وتُلغي هذه القوانين إذا شاءَت مشيئتُه تعالى.. فكلُّ ما يَجري ويتحرَّكُ ويقعُ في هذا العالَمِ والوجود هو آيةٌ لله -عزَّ وجلَّ- وهو مظهرٌ لقُدرته..

من هنا، فإنَّ هذه المعجزاتِ هي آياتٌ لله -تعالى- يُظهرُها على يدِ الرَّسولِ أو النبيِّ صاحبِ المُعجزة، فإحياءُ الميِّتِ، وشقُّ القَمر، وغيرُها، هي أفعالٌ مباشرة من الله، يُريد أن يُثبتَ من خلالها مصداقيّةَ هذا النبيِّ، وأنَّه يقول الحقَّ، ولا يتكلَّم من عنده..

وعند التعمُّق أكثرَ في فَهم المعجزات يمُكِنُ القولُ بأنَّها ظواهرُ تَنطلقُ وتتحرَّكُ بحِساباتٍ وقوانينَ ونُظُم وضعَها الله -عزَّ وجلَّ-، ولا تَجري عَبَثًا على الإطلاق.. وهو -تعالى- يَرفعُها متى شاءَت إرادتُه..

وحتى نُقرِّبَ المسألةَ من الأذهان، يَجب أن نُميِّزَ بين نمَطَينِ أو نوعَينِ من القوانين، وهما: القوانينُ العَقليّة التي هي عبارة عن مُعادلات في الرِّياضيات، ومُسلَّمات في الفلسفة، وبينَ القوانينِ العلميّة المُستنتَجة من التَّجربة.. فالقانونُ أو النّاموسُ العَقليُّ يَكشف عنه الذِّهنُ في ضرورته وحتميّةِ وجوده.. في حين أن القانونَ العلميَّ الطَّبيعيَّ لا يَكشفُه الذِّهنُ بل التَّجارب.. فمثلاً، قانون: "المَعادنُ تتمدَّدُ حالَ تعرُّضِها للحَرارة".. هذا قانونٌ علميٌّ لا يكشف الذِّهنُ عن ضرورته وحتميّته.. بل يَحتاج للقوانين العقلية.

إنَّ القوانينَ العلميّةَ ليست مُطلَقةً نظرًا وعملاً بل نسبيّة، وكلُّ التَّجارب العِلميّةِ عاجزةٌ عن إثبات حتميّتِها وضرورتها.. وبتَعبيرٍ آخَرَ: تلك القَوانينُ

هي من قَبيلِ القوانين البشريّة الوضعيّة. ولا نَعني بلفظِ الوَضعيّةِ هنا أنَّ هذه القوانينَ من اختراع الإنسان، بل تَعني أنَّه -تعالى- هو مَن وضعَ ونظَّمَ وحدَّدَ معاييرَ وخصائصَ للأشياء.. فعلى سبيل المثال، تُوجدُ في النار خاصّيّةُ الإحراق، وضَعَها -تعالى- لتكون سمةً مُميِّزةً لها، وهكذا فالحياة أصبحَت كلُّها تتميَّزُ بمُواصفات وخصائصَ، لأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- هو الذي أتى بها ونظَّمَ لها قوانينَها وثبَّتَ لها غايتَها وهدفيّتَها..

وبناءً عليه، إذا اعتقدنا وآمَنّا بأنَّه -تعالى- موجودٌ حقًّا، عندها يمُكنُنا القولُ والإيمانُ بأنَّ النبيَّ -الذي يقول بأنَّه يُوحى إليه- هو فعلاً جاء بأمرٍ مُعجزٍ مُختلفٍ عن السُّنن المُعتادة في هذا العالم.. وسببُ إتيانه -تعالى- بهذا الأمرِ غيرِ المألوفِ هو فقط للدَّلالة على أنَّ النبيَّ مُبتعَثٌ ومُرسَلٌ منه -تعالى-..

طبعًا الواضحُ أنَّ التَّفكيرَ السَّابقَ، أو المَنطق التَّحليليَّ السَّابقَ، يُؤدِّي بالنَّتيجةِ إلى إسقاط قانون العلِّيّة من أساسه، والخضوع لما يُسمَّى بالضَّرورة القائمة بين العلّة والمَعلول، أي القول بأنَّ العلّةَ الخاصّة لا تُوجدُ إلاّ معلولاً خاصًّا، وأنَّ المَعلولَ الخاصَّ يُوجَد فقط من علّة خاصّة لا غير.

ولكن ما يَجبُ التأكيدُ عليه هنا أنَّ قانونَ العلِّيّة (نظام العلّة والمَعلول) (لكلِّ سببٍ مُسبِّبٌ، ولكلِّ مَعلولٍ علّةٌ)، هو قانونٌ ونظامٌ جوهريٌّ وأساسيٌّ مُحكَمٌ في نظام الخلق والوجود كلِّه، وإتيان الأنبياء بالمعجزات لا يُلغيه، بل هي (أي المعجزات) أحدُ «المجالات والموارد الاستثنائيّة في قانون الطَّبيعة، وموارِدُ الاستثناء في قانون الطَّبيعة كثيرة»[1]..

1 - مرتضى مطهري: النبوة، ص.ص. 207-211.

وعندَما تأتي المُعجزةُ من غير طريق محلِّها أو سَبيلِها الطَّبيعيِّ، فهذا لا يَعني أنَّ المَعلولَ يُوجَد بدون علّة، بل بدون علّته الخاصّة به.

إنَّ ما يُمكِنُ أن يَستشكل على أمر المُعجزة لا يأتي عن طريق العلم، بل من باب الفَلسفة.. فهي التي تُقرِّرُ أنَّ المُعجزةَ ونَقضَ القانون الطَّبيعيِّ أمران لا يَجتمعان.

أمّا بحسب ما يَعتقدُه الأشاعرةُ بهذا الشّأن، فكلُّ القوانين تتغيَّرُ بحسب المَشيئةِ الرَّبانية. ولهذا فلا من دافعٍ أو داعٍ للبَحث فيما وراء حدوث المُعجِزات.

ثانيًا- الردُّ على النَّظريّة الوَضعيّة

يَزعم أصحابُ هذه الرُّؤية أنَّ القوانينَ الطَّبيعيّةَ هي قوانينُ وَضعيّةٌ وضعَها الخالقُ -عزَّ وجلَّ- بهذه الصُّورة والكيفيّة، أو أنَّ العادةَ الإلهيّةَ قد جرَت على أن يُخلَق هذا الأثرُ عقبَ هذا المُؤثِّر، دون أن يكون هذا الأثرُ أثرًا له حقيقةً، وإنَّما يُتوهَّمُ أنَّ هذا أثرٌ وذاك مُؤثِّر.. ويَبني بعضُهم مُبرِّرَه حول هذا المَنطق على أنَّه -تعالى- أوجدَ ووضعَ هذا النِّظامَ والتَّرتيبَ استنادًا للمَصلحة، أو لأنَّ المَصلحةَ تَستوجبُ ذلك، وإلا فالبَديلُ هو اختلالُ النِّظام وشُيوعُ الفَوضى وانتشارُ سُلوكيّات الهَرج والمَرج..

لكنَّ هذا الشَّكلَ من التَّحليل والتَّفكير يُفضي إلى أن تَفقدَ المَصلحةُ مَفهومَها، «إذ عندما يُقال إنَّ اللهَ قد فعلَ فعلاً ما من أجل مصلحة مُعيَّنة، فهذا يَعني أنَّ الأثرَ المقصودَ من هذا الفعل سوف يترتَّبُ عليه لا مَحالةَ، وأنَّ هناك رابطةً ذاتيّةً بين الفِعلِ وأثرِه»[1].

1 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص.ص. 213-214.

المبحثُ الرابع: نظريّةُ حُكماء المُسلمين

دَرسَ الحكماءُ والفلاسفةُ المسلمون قضيةَ المُعجزة، واعتمدوا على قواعدَ ومعاييرَ عقليّة في محاولتهم تفسيرَ هذه الظَّاهرة التي تُعدُّ أساسيّةً في موضوع الإيمان الدِّيني.. وكنتيجةٍ لهذا التَّدقيق والدِّراسة تمكَّنَ هؤلاء من تِبيانِ العلاقةِ وشرحِ الصِّلةِ بين الفِعل الإلهيِّ والفعلِ الإنسانيّ.. حيثُ إنَّ كلَّ سلوكٍ أو تصرُّفٍ أو فعلٍ يَقوم به الإنسان (عاديًّا كان هذا الفِعل أم خارقًا) يَنضوي تحتَ ظلِّ نظامِ الوجودِ ككلّ.. وأمّا عن نظرية حكماءِ المسلمين وفلاسفتهم حول ظاهرة المعجزة: فقد أبدعَ -عزَّ وجلَّ- في خلق الوجود والحياة، بكلِّ ما في عوالمِها الوُجوديّةِ، ناسوتًا وملوتًا وغيرهما، وما فوق ذلك.. ووضعَ -في سبيل تنظيمِ وضبط العلاقةِ بينَها في طبيعةِ مراتبها وأجزائها- مجموعةَ قوانينَ وأنظمةٍ ونواميسَ، من المُمكنِ كشفُها والتعرُّفُ لمَعاييرها بصَرفِ النَّظرِ عن طبيعةٍ وحدودِ المؤهِّلاتِ والقُدرات التي قد تَقتضيها عمليّةُ الكشفِ تلك.

ويَعتقدُ حكماءُ الإسلام أنَّ المُعجزةَ لا تَخرجُ عن القوانين، ولكنَّها غيرُ معروفةٍ بالنِّسبة للإنسان، لكنَّ الأنبياءَ والرُّسلَ (المُوحى إليهم) يَستطيعونَ التعرُّفَ على معاييرها، وهم مُؤهَّلونَ -ولديهم الإمكانيّةُ- لاستعمالِها. بمَعنى أنَّه بإمكانِهم التمتُّع بنَوعين من القُدرة: قدرةِ الكشفِ، وقدرةِ تَسخيرِ واستعمالِ المُعجزة في سبيل تأكيدِ النُّبوة وهداية مجتمعاتِ البَشر، أي أنَّهم لم يَستخدموها إلا لخدمة الغايةِ التي ابتُعثُوا من أجلها.

من هُنا يمُكِنُ القولُ بأنَّ «إثباتَ عدمِ تغيُّرِ القانون الواقعيِّ للعالَم إنمَّا يَقع على عُهدةِ الفلسفة، ولا سبيلَ إلى إثبات ذلك بالطَّريقِ العِلميّ. وحيثُ إنَّ الدَّليلَ الفلسفيَّ يدلُّ قطعًا على أنَّ القوانين الواقعيّة للوجود لا تتغيَّر،

فسنصلُ عندئذٍ إلى تعليلِ وُقوعِ المُعجزةِ وتَفسيرها بنحوٍ لا يَستلزم تغيُّرَ القانون، وسنكتشفُ أنَّ المُعجزةَ هي عبارة عن هَيمنةِ قانونٍ على قانونٍ، وهي ليسَت إبطالاً لقانون»[1].

ويَعتقدُ الفلاسفةُ أنَّ القوانينَ الطَّبيعيّةَ لا يُمكنُ أن تكونَ من قَبيلِ القَوانين البشريّة التَّعاقُديّة والوَضعيّة. ورغم أنَّ المُعجزةَ تدلُّ على أنَّها فعلٌ خارقٌ وآيةٌ إلهيّةٌ، وظاهرةٌ خارجَ التَّصوُّر والمألوف البشري، ولكنها مُرتبطةٌ بالقوانين التي تُنظِّمُ العالَمَ وتتحرَّك فيه.. وهي سلسلةٌ من القوانين القَطعيّة والضَّروريّة.

■ المبحث الخامس: المُعجزةُ ومَبدأ العلّيّة

قانونُ العلِّيّة هو من القوانين والمبادئ العَقليّة البَديهيّة، التي لا يُمكنُ للعلوم أن تَصحَّ من دونه.. أي أنَّه لا يُمكنُ تجاوُزُ أو إنكارُ هذا القانون العامِّ.. وقد أكَّدَ كتابُ الله بأنَّ كلَّ الحقائق الكونيّة، وكلَّ ما يتعلَّقُ بأُسس العالَم، تَستندُ على هذا القانون.. فالله -تعالى- خلقَ كلَّ ظواهر الحياة بناءً على أسبابٍ ومُسبَّبات، وحِكمة وغايةٍ من إيجادها وخَلقها، تَظهَرُ وتتبيَّنُ من خلال نظام الأسباب والمُسبَّبات والعلّة والمَعلول.. ولكن يَجب الإشارةُ هنا إلى أنَّه ثمّةَ فرقٌ بينَ العلّة المألوفة بحُكم العادة والتَّكرار، والعلّة الواقعيّة.. وبهذا الشَّأن يُؤكِّدُ المَرحوم العلامة السيِّد محمد حسين الطباطبائيّ في بحث له حول المُعجزة (ورد ضمن تفسير الميزان)[2] أنَّ

1 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص.ص. 199-200.

2 - محمد حسين الطباطبائي: الميزانُ في تفسير القرآن، ج1، ص83، وج14، ص375.

القرآنَ الكريمَ قد آمنَ بمَبدأ العلِّيّة العامِّ، وقد استدلَّ على ذلك بما وردَ في القرآن الكريم من آيات بشأن القدَر، كقوله -عزَّ وجلَّ-: ﴿**قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾، فهذا القَدْرُ ليسَ كمِّيًّا بحيثُ يكونُ له الحَجمُ الكذائيُّ مثلاً، وإنَّما يَعني أنَّه وضَعَ كلَّ شيء في نطاق مرتبةٍ من الوجود، فأنْ يكون لكلِّ شيءٍ في هذا الوجود قَدرٌ، إنَّما يَعني أنَّ له مَقامًا معلومًا في هذا العالَم لا يتخلَّفُ عنه، فلَه علّتُه الخاصّةُ به، وله زمانُه ومكانُه.. يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ**﴾، فلا يُوجَد أيُّ مانعٍ يُمكنُ أن يمَنَعَ أمرَ الله -عزَّ وجلَّ-، يقول -تعالى-: ﴿**قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾ [الطلاق: 3]... وهو يفعل ما يَشاء وفي أيِّ وقت يَشاء، وبحكمته وإرادته، يَقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**﴾ [الحجر: 21].. أي لا نُوجِدُ ما نُوجِدُ إلّا بقَدر مُحدَّدٍ ومَعلومٍ ومُقدَّر..

ومن هنا، فلا وجودَ لمعجزةٍ خارجةٍ عن نطاق القانون الطبيعيِّ الواقعيِّ (وليس القانونُ الذي يَعرِفُه البشرُ، وإلّا فالقانونُ الذي يَعرفُه الإنسانُ قد يكونُ هو نفسه قانونَ الطَّبيعة وقد لا يكون)، ولكنَّ التوسُّلَ بذلك القانون، أي كشفُه والهَيمنةُ عليه والاستفادةُ منه، يَقترن بنوعٍ من القُدرة الغَيبيّة الماورائيّة، إذ ثمّةَ فرقٌ بين نقضِ قانونٍ ما، وبينَ هيمنة قانونٍ على قانون. وكمثال على ما تقدَّمَ، نذكرُ أنَّ جسدَ الإنسان له قوانينُه المُحدَّدةُ لجهة التَّراكيب والأجهزة، وعندَما يمَرض الإنسانُ ويتَّجه للعلاج، يَستفيدُ الطَّبيبُ المُعالِجُ من القوانين البَدنيّة العُضويّة، ولكنْ هناكَ جملةُ قوانينَ وخصائصَ نفسيّة ومَعنويّة رُوحيّة، تُؤثِّرُ تأثيراً قويًّا ورُبَّما مباشرًا في حالة المَريض.. حتّى إنَّ هناكَ كثيراً من الأمراض

العضويّةِ تَعودُ أسبابُها لخلفيّاتٍ رُوحيّةٍ ونَفسيّةٍ.. بما يَعني أنَّ للعامل الرُّوحيِّ قوةً وتأثيراً كبيراً في حياةِ الإنسان لجِهة المَرَض والعلاج.

■ المبحث السادس: شُبْهة المَحدوديّة والردُّ عليها

هناك مَن يظنُّ أنَّه إذا اعترفنا وقُلنا بأنَّ مشيئةَ الله اقتضَت أن يكونَ لهذا الكون والوجودِ والعالَمِ قانونٌ قَطعيٌّ، فهذا يَعني -كما يَزعمون- أنَّنا نحدُّ من قُدرة الله وإرادته.. وهذا مجرَّدُ كلام أو تحليل غير صحيح، لأنَّه من المُمكنِ جدًّا ألاّ يَقومَ المرءُ بفعلٍ ما أحيانًا حتى لو امتلكَ كاملَ القُدرةِ والإمكانيّةِ على فِعله، وذلك لأسباب تتعلَّقُ بكمالكَ الرُّوحيِّ الذي تتمتَّع به، فعلى سبيل المثال، الإنسانُ التَّقيُّ العادلُ المُلتزِمُ -الذي يَسير في حياته على ضوء الأحكام الشَّرعيّة- يَمتنِعُ عن ارتكاب أي سلوكٍ أو قولٍ أو فعلٍ مشينٍ وقبيح، لأنَّ تَقواهُ وإيمانَه يَمنعانه عن هذا، وسموَّه الرُّوحيَّ يَقف حائلاً دون ذلك..!!.

وهذا ما يُؤيِّدُه الحكماءُ والفلاسفةُ المسلمون، من أنَّ نظامَ الوجود -كما هو عليه- هو النِّظام الأحسَن والأجمل والأتمُّ والأكثر اتِّساقًا وكمالاً.. وأنَّ علوَّ ذات الخالق هو الذي يُوجِبُ وجودَ مثلِ هذا النِّظام. وحينَ لا يُوجَدُ غيرُ هذا النِّظامِ الفعليِّ، فإنَّ ذلك لا يَعني أنَّ قدرةَ الله محدودةٌ، وإنَّما يَعني أنَّ علوَّ ذات الخالق هو الذي يُوجِبُ أن يَجري نظامُ الخلقةِ والوجود على النَّحو الموجود بالفِعل...[1].

1 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص216-219.

الفصل الخامس:

الإعجازُ القُرآنيّ

■ المبحث الأول: الإعجازُ اللَّفظيّ

النُّبوّةُ الخاصّةُ هي نبوّةُ النبيِّ الكريم محمد (صلى الله عليه وآله) الذي أرسلَه -تعالى- بَشيراً ونَذيراً، وقد كانَت له عدّةُ مُعجزاتٍ لتأييدِ دَعوته وإثباتِ نُبوّته، من أبرزها وأهمِّها وأعظمِها القرآنُ الكريم.. فما هي سماتُه ومَزاياه؟!

أولاً- مزايا القرآن الكريم وسماتُه

يتميَّزُ القرآنُ كمُعجزةٍ خالدةٍ، من وُجهتَين:

1 - الوُجهة الأولى: طبيعةُ الكلام

من المعروف أنَّ السِّماتِ والخِصالَ الشَّخصيّةَ تكْشِفُها الأعمالُ والأفعالُ الصّادرةُ عن الإنسان العاقل.. فعندَما نمرُّ أمامَ بناءٍ جميلٍ ومُنظَّمٍ ومُحقِّقٍ للمُواصفاتِ كلِّها، نتأكَّدُ مباشرةً أنَّ المهندسَ المُشرفَ على البناءِ خبيرٌ ومُتقنٌ لعَمله.. إذنْ الفعلُ هو أساسُ فَهمِ الإنسانِ في شخصيّته وطبيعته وخصائصه.. ثُمَّ للكلامِ دَورٌ مهمٌّ في الكشف عن مزايا الفاعل العاقل، يَقول الإمامُ عليٌّ (عليه السلام): «فتَجَلَّى لَهُم سُبحانَهُ فِي كِتابِه»[1].

2 - الوُجهة الثانية: قابليّة البَقاء

كلُّ المُعجِزاتِ التي حدثَتْ في تاريخ حركةِ النُّبوة، وسرَت على أيادي

1 الشريف الرضيّ: نهج البلاغة، الخطبة 147، ص204.

الأنبياء والرُّسل، كانَت مَحدودةً ومُؤقَّتةً، ولم يَرها إلا عددٌ قليلٌ من البشر، ولم تَصلنا إلا بالنَّقل عبرَ الرِّواياتِ والكُتب، ولكن بقيَ القرآنُ مُعجزةً دائمةً أبديّةً، اختارها -عزَّ وجلَّ- لتكونَ مُعجزةً أصليّةً راسخةً للدِّينِ الخاتَمِ والرَّسولِ الخاتَمِ (صلى الله عليه وآله وسلم)، فخلودُ القرآنِ رسَّخَ خلودَ الرِّسالةِ الإسلامية..

ثانيًا- تصريح القرآن بالإعجاز

لقد تحدَّى اللهُ -تعالى- كلَّ البشرِ مُجتمعينَ، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ (أي في كلِّ العصور والأمكنة)، أنْ يأتوا بكلماتٍ مثلِ القرآن، وهذا التحدِّي انطلقَ منذ بدءِ نزولِ القرآن.. يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ [الإسراء: 88].. وهذا الإعجازُ الذي يَطرحُه القرآنُ لا يَختصُّ بسُوَرٍ محدَّدة، بل هو عامٌّ في كلِّ القرآنِ، والتحدِّي قائمٌ أن يأتوا بمثله، وفي آيةٍ أخرى تحدَّاهُم أنْ يأتوا بعَشرِ سورٍ مثله، فقال تعالى: ﴿**فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ**﴾ [هود: 13]. ثمَّ تنزَّل في آيةٍ أُخرى: ﴿**فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ**﴾ [البقرة: 23]، وهذا يَعني أنَّ السُّورةَ الواحدةَ منه هي مُعجزةٌ أيضًا.

ثالثًا- وجهان لإعجاز القرآن

القرآنُ الكريم معجزةٌ خالدة، أنزلَها -تعالى- على الرَّسول الكريم (صلى الله عليه وآله) وتحدَّى من خلالها البشرَ أنْ يأتوا بسورةٍ مثله.. هذا الإعجازُ

النّازلُ من أفقٍ وسياقٍ أعلى بكثير من أُفقِ الإنسان العاديِّ، ويتفوَّقُ عليه بكثير، يتحرَّكُ على صَعيدَينِ أو بُعدَين:

الأوّل: البُعد اللَّفظيّ، وهو البُعد الجماليُّ والفنيُّ.

الثاني: البُعدُ المَعنويُّ، وهو البُعد العلميُّ والفكريُّ.

وللنَّبيِّ وصفٌ لغويٌّ عميقٌ ومَتينٌ للقرآن، حيث يقول (صلى الله عليه وآله وسلم): «وإنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ وباطِنُه عَمِيقٌ»[1].. وقد أكّدَ كلُّ فَطاحلِ اللُّغة العربيّة -ومختلف علمائها- على هذا البُعد الجماليِّ الأدبيِّ اللُّغوي للقرآن الكريم، المُرتبط بمَعانٍ كبيرة وعَظيمة لها دلالاتُها الحياتيّةُ على كلِّ المُستوياتِ والأصعدة.. فجَمالُ المَعنى جزءٌ من جمال اللَّفظ ككلّ.. وعليه، فإذا أردنا أن نبحثَ في إعجاز القرآن يَنبغي أن نَدرس ذلك في إطار مقولتَين: مقولة الجمال، ومَقولة الجانب العلميِّ والفكريِّ. ومَقولةُ الجمال مُتوائمةٌ مع اللَّفظ والمَعنى، ونُطلقُ عليها: "الجانبَ اللَّفظيّ"، أمّا المقولةُ العلميّة فهي تَرتبط بالمَعنى ونُطلقُ عليها: «الجانبَ المَعنويَّ والعِلميَّ والفِكريَّ»[2].

رابعًا- الإعجاز في الجانب اللَّفظيّ

1 - الفصاحة والبلاغة

تُعدُّ «الفصاحةُ والبلاغة» جزءًا من العمليّةِ الإعجازيّةِ للقرآن الكريم، حيث

1 - الشريف الرضيّ: نهج البلاغة، ص61.

2 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص.ص. 354-355.

إنَّ مَن يَقرأ القرآنَ ويتذوَّق معانيَه، يُحِسُّ عمليًّا بوضوحِ بيانه وعذوبةِ كلماته وجماليّةِ مَعانيه وجاذبيّةِ ألفاظه.. وهذا له معنًى مهمٌّ، وهو أنَّ مسألةَ الفصاحة والبلاغة لها علاقةٌ مباشرةٌ بطبيعة المَشاعر والحالة المَعنويّة للشَّخص، أي أنَّها تَرتبط بالإحساس قبلَ ارتباطها بقَضيّةِ العلم والعَقل والتَّفكُّر.

نعم، إنَّ الفصاحةَ من مقولة الجَمال، والجمالُ يَدور مدارَ الإحساس والعاطفة.. ومن المعروف أنَّ عواطفَ النّاس ليسَت على نسق واحد أو درجة ونَوعٍ واحد.. فلكلِّ إنسان ذَوقُه وإحساسُه وعاطفتُه، بحيث يتطابقُ كلُّ لونٍ من ألوان الجمال مع نوعٍ من أحاسيس الإنسان يَتوافَقُ معَها. فما يَنبغي معرفتُه هو طبيعةُ الحسِّ الإنسانيِّ الذي يلتذُّ بجمال فصاحة القرآن، ومع أيِّ الأحاسيسِ الإنسانيّةِ يَتعاطى القرآن. إنَّ القرآنَ يَتعاطى مع الإحساس المَعنويِّ للإنسان، أي مع تلك الأحاسيسِ التي تُحرِّكُ الإنسانَ وتَدفعُه صوبَ العالَمِ العُلويِّ[1].

2 - صيغة البيان القرآنيّ

عندما نُدقِّقُ ونتأمَّلُ في كلمات القرآن، ونُجري مقارنةً بينَه وبينَ بيانات لُغويّة لغَيره، سنجدُ أنَّ هذا الكتابَ الإعجازيَّ مُختلفٌ عن كلِّ ما يمُكنُ أن نُقارنَه به، لجهة الأسلوب الخطابيِّ، والتَّعابير المُستعمَلة، والطَّريقة الخاصّة في الأداء.. فمَثلاً عندما نقرأُ كتابَ نهج البلاغة للإمام عليٍّ، وهو من أفصح العرب والمسلمين، لا يمُكِنُ لأيٍّ كانَ أن يَشكَّ لحظةً

1 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص.ص. 329-341.

في عظمة بيان هذا الكتاب، ولكن لا يُمكِنُ مقارنتُه بكتاب الله -تعالى-، بحيث إنَّه لو وُضِعَت آيةٌ من كتاب الله، بين ثنايا هذا الكتاب، لرأيناها تشعُّ إشعاعًا، والسَّببُ يَعود لما يتمتَّعُ به الكلامُ القرآنيُّ من صياغات لغوية لا مَثيلَ لها، ولا يُمكِنُ لأحد الإتيانُ بمِثلها.. والأمرُ نفسُه يَنطبِقُ على الكلام النَّبويِّ الوارد على لسان الرَّسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهو -مع تميُّزه بالبلاغة والفصاحة اللُّغوية والرَّصانة اللَّفظية، نراهُ يَختلف عن كلمات القرآن شكلاً ومضمونًا وفي أسلوب التَّعبير..

ويمُكنُنا إيرادُ الخطبة التالية للإمام عليٍّ (عليه السلام) للتأمُّلِ بينَها وبين القرآن الكريم.. يقول (عليه السلام): "دارٌ بالبَلاءِ مَحفُوفَةٌ، وبالغَدرِ مَعرُوفَةٌ - لا تَدُومُ أَحوالُها، ولا يَسلَمُ نُزّالُها...، العَيشُ فِيها مَذمُومٌ، والأَمانُ مِنها مَعدُومٌ - وإِنَّما أَهلُها فِيها أَغراضٌ مُستَهدَفَةٌ - تَرمِيهِم بِسِهامِها، وتُفنِيهِم بِحِمامِها - واعلَمُوا عِبادَ اللَّهِ أَنَّكُم وما أَنتُم فِيه مِن هذِه الدُّنيا - عَلَى سَبِيلِ مَن قَد مَضَى قَبلَكُم...، أَصبحَت أَصواتُهُم هامِدَةً، ورِياحُهُم راكِدَةً - وأَجسادُهُم بالِيَةً، ودِيارُهُم خالِيَةً، وآثارُهُم عافِيَةً - فاستَبدَلُوا بِالقُصُورِ المُشَيَّدَة، والنَّمارِقِ المُمَهَّدَة - الصُّخُورَ والأَحجارَ المُسَنَّدَةَ، والقُبُورَ اللاّطِئَةَ المُلحَدَةَ...، بَينَ أَهلِ مَحَلَّة مُوحِشِينَ، وأَهلِ فَراغٍ مُتَشاغِلِينَ - لا يَستَأنِسُونَ بِالأَوطان، ولا يَتَواصَلُونَ تَواصُلَ الجِيرانِ - عَلَى ما بَينَهُم مِن قُربِ الجِوارِ، ودُنُوِّ الدّار - وكَيفَ يَكُونُ بَينَهُم تَزاوُرٌ، وقَد طَحَنَهُم بِكَلكَلِه البِلَى - وأَكَلَتهُمُ الجَنادِلُ والثَّرَى - وكَأَنْ قَد صِرتُم إِلَى ما صارُوا إِلَيه - وارتَهَنَكُم ذَلِكَ المَضجَعُ، وضَمَّكُم ذَلِكَ المُستَودَعُ - فَكَيفَ بِكُم لَو تَناهَت بِكُمُ الأُمُورُ - وبُعثِرَتِ القُبُورُ ﴿**هُنالِكَ تَبلُو كُلُّ نَفسٍ مّا أَسلَفَت وَرُدُّوا**

﴿إِلَى اللهِ مَولاَهُمُ الحَقِّ وَضَلَّ عَنهُم مّا كانُوا يَفتَرُونَ﴾"[يونس: 30]..."[1].

الواضحُ أنَّ هناك تفاوتًا بين الألفاظ الواردة على لسان أميرِ المُؤمنين الإمامِ عليٍّ (عليه السّلام)، وبينَ ألفاظِ وتراكيبِ القرآن الكريم، لجهةِ أسلوب التَّعبير ودلالته.

وعن هذا المَوضوع يقول الشَّيخُ الشَّهيد مرتضى مطهّري: "إنَّ الطَّريقةَ التي اعتمدَها المُشركونَ في تكذيب القرآن ونَعته بالسِّحر تُشيرُ إلى ضَربٍ من التَّصديق الضِّمنيِّ بجاذبيّته الاستثنائيّة، ولو أنَّهم اقتصروا على استنكارِ القرآن ورَفضِه لكانَ شيئًا آخرَ. أمَّا فِعلُهُم فيَكشفُ عن أنَّهم أقرُّوا بأنَّ له بُعدًا غيرَ عاديٍّ وتأثيرًا استثنائيًّا، غايةُ الأمر أنَّهم عَزَوهُ إلى السِّحر، وقالوا إنَّ فيه طلسمًا هو الذي يُضفي عليه قوّةَ الجذب. ويتحدَّث القرآنُ نفسُه عن أحدِهم، وهو الوليدُ بن المُغيرةِ المَخزوميُّ، الذي يُعَدُّ من زعماء قريش ووُجهائها، وهم يُقرُّونَ له بخبرته في فصاحة الكلام وبلاغته، بعد أنْ استمعَ الوليدُ إلى القرآن، فقد عبرَّ القرآنُ عمّا بدرَ منه بالصِّيغة الآتية: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ¤ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ¤ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ¤ ثُمَّ نَظَرَ ¤ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ [المدثر: 18-22]..."[2].

3 - ميزةُ التِّلاوةِ والنَّغم

وبالإضافة إلى عظمةِ بَيانِه وفصاحةِ خِطابِه، هناكَ ميزةٌ أُخرى تتعلَّقُ

1 - الشريف الرضيّ: نهج البلاغة، ص348.

2 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص.ص. 346-347.

بأسلوبه، وهي قابليّتُه لاكتساب النَّغم واللَّحن الجميل الذي يُريحُ النَّفسَ ويُبهِجُ القلبَ..

وكلماتُه القابلةُ للَّحنِ، ليسَت شعرًا، ولكنَّها كنصٍّ نثريٍّ، هي الوحيدةُ -من بين كلِّ نصوص النَّثرِ في العالَم- التي تَختزنُ في داخلها إمكانيّةَ التَّلحين واكتسابِ النَّغمِ الجَميل.. وجاء في الرِّوايات والتَّواريخ الإسلاميّة أنَّ الرَّسولَ الكريمَ كان يأمرُ صحابتَه وناسَه بأنْ يَقرؤُوا القرآنَ ويَتلونَه تلاوةً جميلةً، وعندَما يَسمعُهم كانَت عيناهُ تَفيضان بالدُّموع.. كما جاء أنَّ الإمامَين السجّاد والباقر عليهما السَّلام كانا يَقرأان القُرآنَ بصوتٍ عذبٍ جميلٍ، بحيثُ كان النّاسُ في الخارج يَجتمعون ويُصغون لعُذوبة الصَّوت وجمال نَغمته[1].. من هنا نقول بأنَّ هناكَ إعجازًا خفيًّا للقرآن يتجلَّى في بُعدِه الجَماليِّ الاستثنائيِّ من حيثُ اتِّساقُه وحركيّتُه وتأثيرُه العَميق في روحِ المُستمعِ.. والتأثيرُ يتحرَّكُ بحسب طبيعة المَواضيع التي يَطرحُها القرآنُ في آياته الكريمة، ولكلٍّ منها نغمتُه المُؤثِّرةُ التي تتوافق مع مَعناها وطَرحِها.. فعلى سبيل المثال، هناك آياتٌ تتحدَّثُ عن التَّذكُّرِ والمَوعظة الحَسنة، تكون نغمتُها في غاية السَّلاسة والانسيابية، يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [المائدة: 16]..

كما أنَّ هناك مجموعةَ آياتٍ أُخرى تتحدَّثُ عن عذاب الدُّنيا وعذاب

1 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص.ص. 359-362.

القَبرِ والآخِرة، وفيها مَخزونٌ كبيرٌ من التَّخويف، تكونُ مؤلَّفةً من جُملٍ قصيرةٍ، سَجعُها مُتناسبٌ مع قِصر الآيات، تترادف بعضُها مع بعض، وهنا يكون اللَّحنُ ثقيلاً وضاغطًا وعنيفًا أيضًا، يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَالطُّورِ ¤ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ¤ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ¤ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ¤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ¤ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ¤ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ¤ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ**﴾ [الطور: 1-8].

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى الدَّور النَّوعيِّ والأثر الحيويِّ المُهمِّ الذي تمتَّعَ به البُعدُ الجماليُّ للقرآن في تأثيره الاستثنائيِّ على حركة الدَّعوة، وتوسُّع رقعةِ الإسلام، من خلال انتشارِ القرآن الكريم، حيث تَذكرُ لنا سجلّاتُ التاريخ المَحفوظةُ كيف نهضَ القرآنُ بمُهمّة الإبلاغ والتَّبشيرِ بهذا الدِّينِ العَظيم، حيث كان النّاسُ ينجذبونَ لكتاب الله ببرَكةِ ما فيه من آياتٍ مُتناسِقةٍ بَديعةٍ، وكلماتٍ رَشيقةٍ جَميلةٍ..

■ المبحث الثاني: الإعجاز في الجانب المَعنويِّ

كانَ العلماءُ، وما زالَ كثيرونَ منهم، يتحدَّثونَ عن إعجاز القرآن من الناحية اللُّغوية والعلمية والبلاغية، وما فيه من مضامينَ فِكريّةٍ ومَعرفيّة.. ولكنَّ المُلاحَظَ أيضًا أنَّ هناكَ جانبًا إعجازيًّا معنويًّا للقرآن، له عدّةُ مجالاتٍ، ويتفرَّعُ إلى مجموعة أقسامٍ، بحسبِ تنوُّع مضامينِه ومَوضوعاته.

ويمُكنُنا رصدُ أهمِّ هذه الأقسامِ والمَوضوعاتِ الفِكريّةِ والعِلميّةِ، التي تطرَّقَ إليها القُرآنُ، وكانَتْ آيةً إعجازيّةً في البُعد المَعنويِّ:

أولًا- في المجال التَّوحيديّ والإلهي

عالجَ القرآنُ الكريم مسألةَ التَّوحيد، وكثيراً من المَوضوعات والقضايا الإلهيّة المتَّصلة معَها، ممّا يُعرَفُ بمسائل ما وراءَ الطَّبيعة، حيث أتى بيانُه ليَكونَ بيانًا أعلى، وفوقَ العَصر الذي نزلَت فيه آياتُه، وفوقَ كلِّ ما كان مَعروفًا ومألوفًا لدى النّاس في كلِّ العالَم، حتى في بلاد الإغريق والرُّوم، التي كانَت لديها أفكارٌ وآراءٌ وفلسفاتٌ مَعروفةٌ على صعيد الإلهيّات وعالَم ما وراءَ الطَّبيعة.. إذ كيفَ يمُكنُ أن تَصدُرَ عن شخصٍ أُميٍّ، لا يَقرأ ولا يَكتب، مثلُ هذه الأمور والأفكار الإلهيّة والتَّوحيديّة المتُقدِّمة على كلِّ الأزمنة، إنْ لم يكنِ الكتابُ الذي جاءَه وَحيًا هو أمرٌ مُعجزٌ؟!..

ثانيًا- في المجال الأخلاقي والتَّربوي والهدائي

طرحَ القرآنُ الكريمُ كثيراً من الأفكار والقِيَم الرُّوحيّة والأخلاقية، والمَعاني التَّربوية المَبدئيّة، ولكنَّها بمُجملها لم تدخلْ إلى العَميق الدّاخليِّ لكثيرٍ من الناس في ذلك الوقت، بمَعنى أنَّه لم تتوفَّرْ هناك القابليّةُ والإمكانيّةُ لكي يَصل أهلُ ذلكَ العَصر -على صَعيد الفكر الذّاتيِّ الفَرديّ- إلى المستوى الفكريِّ المَعرفيّ الذي تَناولَه وطرحَه القرآنُ على صعيد تلكَ المَعاني السّامية والرَّفيعة، أخلاقيًّا وتربويًّا، وهدائيًّا.. وهذا جانبٌ من جوانب الإعجاز القُرآنيِّ.

ثالثًا- في مجال المَعايير والمُحدِّدات القانونية

أقرَّ القرآنُ الكريمَ كثيراً من المَعايير والضَّوابط والمُحدِّدات القانونية،

على مستوى العبادات والمعاملات والسُّلوكيّات والعَلاقات، واضعًا القوانينَ والأفكارَ الحقوقيّةَ، على صعيد الفَرد والأُسرة والمجتمَع ككلّ.. ولكنَّ السُّؤالَ هنا هو: كيفَ تمكَّنَ رجلٌ أُميٌّ (لم يتعلَّمْ أو يَدرس في مدارس وجامعات وغيرها) أن يَطرحَ تلكَ المَطالبَ القيَميّةَ والتَّربويّةَ والأخلاقية؟.. هذا أيضًا شكلٌ من أشكال الإعجاز القرآني.

رابعًا- في المَجال الطَّبيعي (الطَّبيعيات)

يتحدَّثُ القرآنُ عن نفسه مُعرِّفًا بأنَّه كتابُ هدايةٍ للبشرية، ولكنَّه رغم ذلك نَراهُ يتحدَّثُ ويُشير إلى كثير من علوم الحياة والإنسان والطَّبيعة.. بل تَراه يَبحث أحيانًا في أمورها البنيويّة الدَّقيقة، ممّا لم يكنْ معروفًا أو مُكتشَفًا في العَصر الذي نزلَ فيه.. وتمَّت مَعرفتُه واكتشافُه في العصور اللاّحقة.. وقد أثبتَت العلومُ والحقائقُ العلميّةُ صحّتَه ومصداقيّتَه ودقّتَه.. جاءَ عن الإمام (عليه السلام) أنَّ الفضاءَ كان بأجمعه دُخانًا قبلَ خلق السَّماء والأرض، وهذا ما تُفيدُنا به الآيةُ الكريمة: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ [فصّلت: 11].. وقد وردَ عن الرَّسول الكريم والأئمّة الكرام -فيما يتعلَّقُ بحَديث القرآن عن كثيرٍ من القَضايا والمسائل الطَّبيعية- أنَّ القُرآنَ جديدٌ على الدَّوام لا يَبلى، وفيه قابليّةُ الكشفِ باستمرار، لأنَّه لا يَختصُّ بزمانٍ دونَ آخَر.

خامسًا- في جانب حركة التاريخ

سلَّطَ القرآنُ الضَّوءَ على التّاريخِ الذي سبقَ نزولَه، حيثُ قصَّ أحداثَ

الحضاراتِ والأُمَمِ والمُجتمعاتِ السّابقة، التي لم يكنِ الرَّسولُ الكريم (صلى الله عليه وآله) مُطَّلعًا وعارفًا بها، كما يقول القرآنُ نفسُه في قوله -عزَّ وجلَّ-: ﴿**مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ**﴾ [هود: 49].

وقد كانَت تلك الوقائعُ والحَكايا التاريخيّةُ، التي سردَها القرآنُ في سُوَرِه، حَظيت باحترام وتَصديقِ النّاسِ، لأنَّ القرآنَ ذكرَها وأشارَ إليها، معَ أنَّه لَم يكنْ يُوجَد ما يدلُّ عليها ويُثبتُها تاريخيًّا وواقعيًّا.. وهو أمرٌ لم يَحدثْ إلا بعدَ سنوات طويلة، حيث أتَت البحوثُ والاكتشافاتُ والدِّراساتُ لتُؤيِّدَ ما ذكرَهُ القرآنُ.. وفي هذا دليلٌ واضحٌ على إعجاز القرآنِ من النّاحية التّاريخية.

سادسًا- الإعجاز المنطقيُّ في القرآن الكريم

لقد شكَّلَ المنطقُ، الذي تحدَّثَ به القرآنُ الكريم، جانبًا إعجازيًّا من خلالِ ما طرحَه مَنطقيًّا في توضيحه وإراءته لمُجمَلِ الدَّوافعِ والأسباب، التي أفضَت إلى انزلاق الفكرِ الإنسانيِّ لجانبِ الخَطأ..

فمن المَعروف أنَّ هناكَ كثيراً من الأمورِ والأشياء قد تَدفع الإنسانَ للوُقوع في براثن الخَطأ، إذ إنَّ طبيعةَ الإنسان قابلةٌ ومُهيَّأةٌ له، فقد نجد بعضَ النّاسِ يَصنعونَ لأنفسهم أصنامًا شخصيّةً أو اجتماعيّةً أو سياسيّةً ونحو ذلك، يمُكنُ القولُ بأنَّها هي التي تتحمَّلُ المسؤوليّةَ الأساسيّةَ عن حدوث الأخطاء الفكريّةِ وغيرِ الفكرية في مسيرةِ الإنسان.. خاصّةً مع التسرُّع في إصدار الأحكامِ والتَّقييمات قبلَ وضوح الأفكار وتبيان حقيقتها.. ولا شكَّ بوجود أسبابٍ أُخرى لهذا الخَطأ، حيث هَيمنةُ الأهواءِ والأمزجةِ الشَّخصيّةِ

والنَّفسيّة، التي تُؤثِّرُ على القَرار والمَنطق والفكر والعَقيدة.

لكنْ للقرآن الكريم رأيٌ وتَحليلٌ نوعيٌّ مهمٌّ على هذا المستوى، حيث إنَّه طرحَ منذ قرون طويلة ضرورةَ وجود المنطقِ السَّليم، مُحذِّرًا مما قد يُصيبُه من أمراضٍ وآفات، ويُمكِنُ أن نُشير هنا إلى عدد من الآيات الكريمة، التي تناولتْ –على نحو جديد وغيرِ مَسبوق- الأسبابَ الأساسيّةَ المُفضِيةَ أو الدّافعةَ للانحراف الذِّهنيِّ عندَ البشر، وذلك على النَّحو التالي:

1 - اتِّباع الظنّ

يتحدَّثُ القرآنُ الكريم عن خطورة اتِّباعِ الظُّنونِ والتَّخميناتِ، مُحذِّرًا الناسَ من الوقوع في مَهاويه، وداعيًا لضرورةِ اجتنابه، يقول -تعالى-: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ [الإسراء: 36]، ﴿**إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾ [الجاثية: 24]، ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ**﴾، وعِلّةُ هذا الانحرافِ هي: ﴿**إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ**﴾ [الأنعام: 116]..

2 - تقليد الماضينَ والأقدمينَ

كان مِن أهمِّ المَهامِّ، التي جاء من أجلها الأنبياءُ والرُّسل، مُحارَبةُ بدعةِ تقليدِ الآباء والأجداد، والخضوعِ لأفكارِهم، والمَيلِ نحوَ توجُّهاتِهم الفِكريّةِ وغيرِ الفِكريّة.. هذا العَمى الفكريُّ والهَوسُ بالماضينَ كان بلاءً حقيقيًّا عانى منه كثيرٌ من الأُمم والمُجتمعات، وهذا من الأسبابِ التي كانَت تُوقعُ النّاسَ في وديانِ الخَطأ..

3 - التّسرُّع في الحُكم والتَّقييم

ذكر القرآنُ أيضًا أنَّ من أسباب الفشلِ والخطأ الذِّهنيِّ والفِكريِّ التسرُّعُ في الحُكم على الأشياء، أو ما يُسمَّى بـ«سرعة البَتِّ بالأمور»، يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا**﴾ [الإسراء: 85].

4 - هوى النَّفس

ومن الأمور التي ذكرَها القرآنُ الكريمُ، ولفتَ النَّظرَ إليها في خصوص الخَطأ الذِّهنيِّ، (اتِّباع الهوى النَّفسي)، يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ**﴾ [النجم: 23].. وهوى النَّفس هو أحدُ أشكال الأصنام التي حذَّرَ منها القرآنُ.. وهو هنا يُسمَّى بالصَّنمِ الشَّخصيِّ، أو صَنمِ الذّاتِ المُتغطرِسةِ والنَّرجِسيّة.

5 - اتِّباع الكُبراء

وهو أيضًا من أسباب حدوث الخطأ الذِّهنيِّ، يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا**﴾ [الأحزاب: 67]، وهي التي أشارَ إليها بعضُ الفلاسفة باسم "الأصنام الشَّكليّة"، كأنْ يُريد الإنسانُ أن يُفكِّرَ بمَسألة مُعيَّنة، وإذا بشخصٍ عظيم كأرسطو مثلاً يَتراءى أمامَه، فتَميلُ نفسُه إلى أنَّ أمثالَ هؤلاء العُظماء لا يُمكن أن يَكونوا قد أخطؤوا، ويُسلِّم بما نَطقوا به[1].

1 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص.ص. 395-396.

وهكذا كانَ كثيرٌ من النَّاسِ يُسلِّمون القِيادَ لكُبرائهم، ويتَّبعونَهم في فِكرِهم وأعمالِهم، مُعرضينَ عن رسالةِ الأنبياء، ومُنحرفينَ عن الهُدى الذي حملوا رايتَهُ، وتفانَوا في نَشرِه وإظهارِه.

■ المبحث الثالث: إعجازُ القرآن في التَّوحيد والمَعارف الإلهيّة

يتضمَّنُ القرآنُ الكريمُ بيانَ كثيرٍ من القَضايا الفكريّة والمَسائلِ الإلهيّة المتَّصلة بالله أو بما وراءَ الطَّبيعة، بحسبِ ما يَصطلحُ عليه الحُكماءُ والفلاسفة.. وهذا البيانُ الفكريُّ والمعرفيُّ الفلسفيُّ (حولَ التَّوحيد وما وراءَ الطَّبيعة) الذي تَناولَه وعالجَه القرآنُ لَهو دلالةٌ أكيدةٌ على سبقه لعصره، وتجاوزه لبيئته الاجتماعية والثقافية..

ولا شكَّ بأنَّ ما جاءَ به كتابُ الله (القرآن) في هذا المجال العقائديِّ الإلهيِّ (التَّوحيد وغيره من أمور الإلهيات) لا نظيرَ له، ولا يُمكنُ لبشرٍ أن يأتيَ بمثله.. إنَّه أمرٌ فوق الطَّاقة البشريّة.. خاصّةً لجهة فكرة التَّوحيد ذاتها، حيثُ إنَّه يَنبغي على هذا الإنسان أن يَعترفَ ويُقرَّ بأنَّه مَهما وصلَ إلى مراتبَ مُتقدِّمة في فَهمه لفكرة التَّوحيد، يَبقى فِكرُه ناقصًا عن إدراك كُنه وحَقيقة هذه الفكرة، لأنَّ اللهَ -تعالى- الذي هو محورُ هذه الفكرة والقَضيّة الإلهيّة- أرفَعُ شأنًا وأعلى مَرتبةً وأجَلُّ من أيّة تَوصيفات أو حدود لهذا الوَصف المُمكن.. فالتصوُّراتُ البشريّةُ عن المُطلَق نسبيَّةٌ مَحدودةٌ زَمانًا ومكانًا، وهي بمُجمَلها ما زالَت تصوُّرات وأفكارًا جسميةً.. إنَّ التَّنزيه والتجرُّدَ، كمَراتبَ تصوُّريّة للإله، هي من مُختصّات القرآن الكريم وحدَه.. وهذا بُعدٌ إعجازيٌّ بطَبيعة الحال، يُمكنُ الإشارةُ له فكريًّا من خلال الآتي:

أولًا- تَنزيه الله في القرآن

يُطالِبُ القرآنُ النّاسَ بأن يُنزِّهوا اللهَ تعالى، فهو أرفَعُ وأعلى وأسمى من أيّة تصوُّرات تَخلقُها أذهانُهم عنه، يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾]الصافات: 180]. ويقول: ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ**﴾ [طه: 114]، ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ**﴾ [الحشر: 23]، ﴿**وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ**﴾ [البقرة: 255]، ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾ [الأنعام: 103]، إلى غيرها من الآيات الكريمةِ التي تُركِّزُ على ضرورة تَنزيهِه -تعالى- بأعلى درجاتِ القُدسيّةِ والتَّنزيه، بَعيدًا عن أيِّ نقصٍ لا يَليقُ به تعالى..

جاء عن النبيِّ الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم): "لا أُحصي ثناءً عليكَ، أنتَ كما أثنيتَ على نفسكَ»[1]. وجاء أيضًا: «كلُّ ما ميَّزتموهُ بأوهامكُم في أدقِّ معانيهِ مَخلوقٌ مَصنوعٌ مِثلُكُم مَردودٌ إليكُم»[2]. وهذا يَعني أنَّ العقلَ البشريَّ عاجزٌ كليًّا عن فَهم حقيقة الله، ولا يُمكنُه إدراكُ كُنه ذاته تعالى.. يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾ [الإسراء: 111]. ﴿**وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾، فاللهُ أعلى وأكبرَ وأعظَمُ مِن أن يتمكَّنَ أحدٌ من وَصفه، ولا يُقاسُ به شيءٌ.. وقد أخطأ كلُّ مَن حاولَ تَوصيفَه أو إيجادَ نسبةٍ له.. يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللَّه**

1 - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج68، ص23.

2 - م. ن. ج115، ص34.

﴿وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: 116]، وقوله -تعالى-: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 47].. إنَّ كلَّ هذه الأبعادِ التَّنزيهيّة، التي يَطرحُها القرآنُ، لا يمُكنُ أن تَجدَ لها نظيراً ولا مَثيلاً في أيّةِ كتبٍ مَعرفيّةٍ وفلسفيّةٍ أو حتى في الكُتب السَّماوية الأخرى.

ثانيًا- صفات العظمة والجلال في القرآن

تحدَّثَ القرآنُ عن الصِّفاتِ الجَماليّة الثُّبوتيّةِ، يقول -عزَّ وجلَّ- في كتابه الكريم:

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3].. ﴿وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾ [البقرة: 115].. ﴿ونحنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16].. ﴿أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: 24].. ﴿لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنى﴾ [طه: 8].. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: 4].. ﴿الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: 25].. ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ [البقرة: 255].. ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54].. ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 165].. ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [التغابن: 1].. ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس: 68].. ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصّلت: 53].. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.. ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصّلت: 54].

فهذه الصِّفاتُ الجَماليّةُ الدّالّةُ على عظمته -تعالى-، والتي تحدَّثَ عنها القرآنُ في آياتٍ كثيرة، نزلَت وَحيًا على النبيِّ الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم)، الأميِّ الذي لم يكنْ مُطَّلعًا على أفكار مَن سبقَه، بل صدرَت عنه، لتكونَ إعجازًا فكريًّا في مستوى العَقائد والتَّوحيد.

إنَّ هذه الصِّفاتِ هي صفاتُ الخالق العَظيم المُطلَق الذي لا يُقهَرُ، ولا حدَّ له ولا نهاية ولا بداية.. وهذا المَنطق الذي يتحدَّثُ عن ذاته -تعالى-، واصفًا بدِقّةٍ قِيَمَ العَظمة والجلال والجَمال والكمال المُطلَق، بحيثُ يكونُ مالئًا للوجود كلِّه في كلِّ زمان ومكان، هذا المَنطقُ الذي يَصف اللهَ بهذه الكيفيّة التي تُعَدُّ أعلى حدٍّ، كيف يمُكِنُ أن يَرتقيَ إليه إنسانٌ في وصف الله، وكيفَ يمُكِنُ أن يَكونَ قد صدرَ عن إنسانٍ أمِّيّ؟!.. حقيقةٌ لا مَناصَ من أن تكونَ تلك المَعاني والأوصاف قد نَزلَت من مكانٍ آخَرَ، وجاءَت من أُفقٍ آخَر، وقد جرَت على لسان النبيِّ المُقدَّسِ (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإلّا فكيفَ يمُكِنُ لإنسانٍ أنْ يَصِفَ اللهَ بمِثلِ ما وصفَه القرآنُ انطلاقًا من فِكرِه المَحضِ[1]؟!..

■ المَبحثُ الرّابعُ: القُرآنُ والجَمال الوَصفيُّ الفائق

لا شكَّ أنَّ هناك كثيرًا من الفلاسفة والحُكماء انفتحوا على الإيمان بالله، وحاولوا تَوصيفَه بعدَ إثباتِهم لوُجوهٍ من خلال ما طَرحوهُ من أدِلّةٍ وقرائنَ وبَراهينَ فلسفيّةٍ وكلاميّةٍ وغيرها.. لكنَّ

1 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص.ص. 409-417.

وَصفَهم هذا مُختلفٌ جذريًّا عن وصف وحديث الأنبياء عن الله تعالى.. كما أنَّ الإلَهَ الصانعَ، الذي توسَّعَ القرآنُ في عرضِه للنّاس، هو إلهٌ خالقٌ جميلٌ ومَحبوبٌ ورَحيم، بمعنى أنَّها صفاتٌ يَتوق النّاسُ إليها..

والواضحُ أنَّ هناكَ اختلافًا كبيراً واضحًا بين تعريفِ الفلاسفةِ للإله، وبينَ تعريف القُرآنِ له.. فالقرآنُ يُقرِّبُ الإلهَ من الناس، ويُعرِّفُه بطريقة تُؤدِّي إلى أن تتولَّدَ في نفوسهم وتَشتعلَ في قلوبهم نيرانُ الحبِّ والبحثِ والمُجاهدة والسَّعي إليهِ تعالى.. يقولُ -عز وجل-: ﴿**وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**﴾ [الصف: 11].

إنَّ مَنطِقَ "علّةِ العِلَلِ» يُقدِّمُ الخِلقةَ على الله، حيثُ يُشير إلى أنَّ وراءَ نظامِ الخِلقةِ، في حركتها هذه، عِلّةً نهائيّةً هي التي خلقَت وأبدعَت هذا الوجودَ العَظيم..

أمّا القرآنُ فهو يَقول: صحيحٌ أنَّ وراءَكَ - أيُّها الإنسانُ - قدرةً أوجدَتْكَ وأوجدَتْ عالَمَ الوجودِ كلِّه، لكنَّ الأهمَّ من ذلك أنَّكَ حينَ تتحرَّكُ إلى الأمام، فإنَّكَ تتحرَّكُ نحوَ الله، فأنتَ مُنبثقٌ منه وراجعٌ إليه، والأسمى من ذلك كلِّه ما يُؤكِّدُه القرآنُ خاصّةً من أنَّ كلَّ شيءٍ صائرٌ إليه: ﴿**أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [آل عمران: 83].. إنَّ هذا المَنطِقَ، الذي يتحدَّثُ عن الله بهذا الأسلوب الجَذّاب، هو ممّا يَختصُّ به القرآنُ[1].

---

1 - مرتضى مطهّري: النبوّة، ص.ص. 428-433.

■ المبْحثُ الخامس: علاقةُ الإنسان بالله في القرآن

لقد وَصفَ القرآنُ الكريم هذه العلاقةَ وَصفًا جميلاً ومُعبرًّا.. فقد عرَّفَ القرآنُ الإنسانَ بأنَّه كائنٌ مُتشوِّقٌ للكَمال ومُتطلِّعٌ للحَقيقة، وهو لا يمُكنُه التوقُّفُ عن الحركة والسَّعي حتى يَصلَ إليه -عزَّ وجلَّ-: ﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ**﴾، وقوله -تعالى-: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: 28]، وقوله: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ¤ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً**﴾ [الفجر: 27-28].. وهذا له دلالةٌ على أنَّ العلاقةَ بينَ الخالق وعبدِه وثيقةٌ، يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ [البينة: 8].. وكجزءٍ من طبيعة العَلاقة بينَ الله والإنسان يَذكر العلماءُ أنَّ الله -تعالى- زرعَ في فِطرة الإنسان مَيلاً ذاتيًّا فيه نحوَ عالَم الكمال المُطلَق، عالَم الميَلِ إليه تعالى، والشُّعورُ بضرورة تَقديسه وإجلاله والخضوع الكامل له، حيثُ إنَّ العبوديّةَ مَقامٌ رفيعٌ للتوجُّه نحوَ عُمق العلاقة معَه تعالى.. يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾ [الروم: 30].

■ المبحث السادس: أقوَمُ السُّبُلِ المَنطقيّة لمعرفة الله

لا يَفصلُ القرآنُ بينَ الإيمان والعقل، بل يَعتبرُ العقلَ طريقَ الإيمان، وأنَّ اتِّباعَ الإنسان للمَنهج أو السَّبيلِ العَقليِّ سيُوصلُه حَتمًا إلى معرفة الله والإيمان به.. وهذا الأمرُ يأتي عكسَ الوضع في المَسيحيّة التي تَقطعُ الصِّلةَ بينَ الإيمان والعَقل (العلم).. نعم، القرآنُ يَعُدُّ العقلَ والعِلمَ

سَبيلاً أساسيًّا وجسرًا مَتينًا للإيمان بالله، يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: 164].. إنَّ التأمُّلَ في هذه الآية يُرشِدُنا إلى أنَّ التَّفكُّرَ في ظواهر الحَياة والطَّبيعة، ومُختلفِ مَظاهرِها التي خلقَها اللهُ، هو سبيلُ الهداية واكتشافِ دليلِ التَّوحيد..

لقد استعرضَ القرآنُ كثيراً من الدَّلائلِ على الإيمان بالله، بل كان هو الكتابُ الوحيدُ الذي يُعَدُّ كلُّ ما جاءَ به في مجال الإلهيّات صَحيحًا، والإعجازُ أنَّه عرضَها قبل أكثرَ من 1400 سنة، ولم تتمَّ مُواجهتُها ورَفضُها والاعتراضُ عليها، بل أصبحَت مَنبعًا ومَصدرًا يَنهلُ منها الآخَرونَ، وهذا دليلٌ مُهِمٌّ على أنَّها من مبدأ أعلى.

الفصل السادس:
خَتْمُ النُّبوّة ومُسوِّغاتُها

تزامنَ ظهورُ الإسلام مع الإعلان عن خاتميّته كآخرِ دينٍ، وإغلاقِ باب النُّبوّاتِ بنبوّةِ الرَّسول الكريم محمد (ص).. وقد أعلنَ القرآنُ صراحةً عن هذه المسألة (ختم النبوة)، كما تحدَّثَ عنها النبيُّ أكثرَ من مرة، «فقد بات الاعتقاد بظهور نبيٍّ آخَر مُخالفًا للإيمان بالإسلام عند المسلمين، وكذلك هو الحال في إنكار وحدانيّة الله وإنكار يومِ القيامة»[1].

■ المَبحثُ الأوّلُ: تساؤلاتٌ حولَ خَتم النُّبوّة

تُستعمل كلمةُ «الخاتَم» للدَّلالة على الشَّيءِ الذي يُنهونَ به شيئًا ما.. فرِسالةُ النبيِّ محمد (صلى الله عليه وآله)، التي هي رسالةُ الإسلام، كانَت رسالةً خاتمةً، أي ختمَ -تعالى- بها كلَّ الرِّسالات والنُّبوات السّابقة، حيث إنَّ الخَتمَ الذي تُختَمُ به الرِّسالةُ بعدَ غَلقها يُسمَّى "خاتمًا".. جاء في كتاب الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ [الأحزاب: 40]. إنَّ قضيّةَ خَتمِ النُّبوّاتِ بنُبوّةِ الرَّسولِ الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، تَجعلُنا نُفكِّرُ ونَتساءَل:

ما مَدى التأثير السَّلبيِّ لعدم ظهور نبيٍّ جديدٍ بعدَ النبيِّ محمد على صَعيد الأخلاق والقيَم والمَعنويات الرُّوحيّة الإنسانية؟ هل ستَقِلُّ وتَتضاءَلُ تلك القيَمُ والمَعنويّاتُ، وتَضمحلُّ استعداداتُ البشر وقابليّاتُهم الرُّوحيّة؟.. ولماذا لا يُوجَدُ بعدَ نبوّة الرَّسولِ الكريم محمّد (صلى الله عليه وآله) أشخاصٌ مُميَّزونَ يَمتلِكونَ صفاتٍ مَلكوتيّةً تُمكِّنُهم من التَّواصُلِ معَ عالَمِ

1 - مرتضى مطهّري: ختم النبوّة، ص5.

الغَيبِ والمَلكوت؟!.. ومعَ معرفتنا بأنَّ النُّبوّاتِ هي بالأساس جاءَت لتأمينِ حاجاتِ البشر الرُّوحيّة والمَعنويّة، وإرشادهم لسبيل الاستقامة والرَّشادِ والهداية الإلهيّة، فقد استمرَّتْ تلك النُّبوّاتُ مُتجدِّدةً في الماضي بينَ وقتٍ وآخَر، تبعًا لطَبيعة المَرحلة التي يَعيشها النّاسُ، وكانَت هناك على الدَّوامِ استمراريّةٌ في ظهور الرُّسل والأنبياء والتَّجديد المستمرِّ للشَّرائعِ والأحكامِ وعمليّاتِ النَّسخ العديدة للكتب السَّماويّة السّابقة، من خلال كُتبٍ سماويّةٍ لاحقة.. وهنا نسأل: لماذا حدثَ هذا في الماضي مع نُبوّات ورسالاتٍ سابقة، في ظلِّ تَحوُّلات وتَغيُّرات ظروف البَشر، ولا يَحدثُ بعدَ نُبوّة الرَّسولِ الكريم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، مع تَعاظُم الأحداث والتَّحوُّلاتِ البَشرية، من منطلَق الحاجة إلى استمراريّة الاتِّصال بعالَم الغَيب، وضَرورة عَدم تَركِ النّاسِ هكذا بلا قيادات إلهيّة ، مع حاجتها للنُّبوّات التَّبليغيّة؟!

في الواقع، قدَّمَ دينُنا الإسلاميُّ الحنيفُ إجابات واضحةً وصَريحةً عن مُجمَلِ الأسئلة السّابقة، وغيرها ممّا يُطرَحُ ضمنَ السِّياق نفسه، حيثُ إنَّ فكرةَ خَتمِ النُّبوّة ليسَت مُؤشِّرًا على تقهقُرِ النّاسِ والحضارات أو انحطاط البشريّة واضمحلال استعداداتها وقابليّاتها للخَير والأخلاق والقيَم الإنسانية.. كما أنَّها لا تدلُّ على استغناء البشر عن الرِّسالة الإلهيّة، وليسَت دليلاً على أنَّها «غيرُ مُتوافقة مع تَلبية حاجات البشر المُتغيِّرة في مختلف المراحل والأزمنة، وإنَّما لها سببٌ آخَرُ وفلسفةٌ أُخرى. ويَجبُ قبلَ كلِّ شيءٍ أن نتعرَّفَ إلى حقيقة خَتمِ النُّبوّة كما رسمَها الإسلامُ، ونَدرسها ثمَّ نَحصل على الأجوبة عن تساؤلاتنا»[1].

1 - مرتضى مطهري: ختم النبوة، ص8.

■ المبحث الثاني: المُقوِّمات الأساسيّةُ لمسألة خَتم النُّبوّة في الإسلام

تعرَّضَت رسالاتُ الأنبياءِ المُتتاليةُ، التي ظهرَتْ على مسرَحِ التّاريخِ، لكثيرٍ من أعمال التَّحريفِ والتَّشويه، وهذا بحدِّ ذاته كان من أهمِّ الأسبابِ لظُهورِ رسالاتٍ ونُبوّاتٍ جديدة، أو تَجديدِ رسالاتٍ سابقة، يتمُّ من خلالها تَحديثُ التَّعاليمِ والأحكامِ التي جاءت بها الرِّسالاتُ السّابقة، حيث إنَّ كثيراً من تلك الكتب والنُّصوصِ السَّماوية كانَت خاصّةً بأزمانٍ محدَّدة، وبأقوامٍ مَعروفينَ، فكانَت تَفقدُ أهمِّيَتَها وصَلاحيّةَ أحكامِها وتَعليماتِها مع مرورِ الزَّمانِ وتبدُّلِ الأقوامِ.. فكانَ الأمرُ الإلهيُّ يَقتضي إرسالَ شرائعَ جديدةٍ وأنبياءَ جُدد، ولكنْ مع ضَرورة أخذِ العلمِ هنا أنَّ تتاليَ ظهورِ الأنبياء لم يأتِ فقط كنَتيجةٍ طبيعيّةٍ لتكامُلِ مُناخاتِ الحياةِ وظُروفِ البشرِ في حاجتهم لرسالة جديدة، بل جاء كمُحصِّلةٍ نهائيّةٍ لفَناءِ الكُتبِ والتَّعاليمِ السَّماويّةِ وتَبديلها..

قالَ الله -تعالى-: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: 9].. وهي آية تُبيِّنُ لنا أنَّ اللهَ -تعالى- حفظَ الرِّسالاتِ والتَّعاليمَ والعقائدَ، وكلَّ ما يتَّصل بغايةِ وجودِ الإنسان في الحياة، في هذا الكتابِ الإلهيِّ العَظيم الذي اسمُه "القرآن الكريم"، والذي بقيَ خاليًا من أيِّ تَحريف، وسَليمًا وصَحيحًا إلى أنْ يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها وما عليها.. وهذا له دلالةٌ أكيدةٌ على أنَّ البشريّةَ وصلَت إلى مستوى البُلوغِ خاصّةً على الصَّعيد الاجتماعيِّ. والحقيقةُ أنَّ من أركانِ الخاتميّة: «البلوغَ الاجتماعيَّ للبَشر إلى درجةٍ تُمكِّنُهم من أن يُحافظوا على ميراثِهم العِلميِّ والدِّينيّ، وأن يُبادروا بأنفسِهم إلى نشرِه وتَبليغِه وتَعليمِه وتَفسيرِه»[1].

1 - مرتضى مطهّري: ختم النبوّة، ص.ص. 10-11.

■ المبحث الثالث: حقيقةُ الدِّين وَصلت إلى غايتِها مع خاتَمِ الأنبياء (ص)

نلاحظُ أنَّ القرآنَ الكريمَ يتعاملُ مع كلِّ الرِّسالاتِ والأديانِ على أساس أنَّها واحدةٌ في مَضمونها وغايتِها (رغمَ ما بينَها وفيها من اختلافات في بعضِ القوانين والأحكام والشرايع)، وأنَّ كلَّ الأنبياءِ جاؤوا أو أُرسلوا لهدفٍ واحد، هو الإيمانُ بالله وتَوحيده، وإقامةِ شَرعه وتَحكيمِ العَدل، ويُسمِّي القرآنُ هذا الدِّينَ بالإسلام، يقول -تعالى-: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ**﴾ [الشورى: 13].. ويقول -تعالى-: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّه وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللَّه لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ [المائدة: 48]..

إنَّ الاختلافَ في التَّعاليم النَّبويّةِ يُمكِنُ أنْ يأتيَ على نمطَينِ أو شكلَين:

أولاً- الاختلافُ في الوَعي (ما بين دُروس الصُّفوف العُليا والدُّنيا)

تختلفُ الناسُ في طبيعة فَهمِها وإدراكِها لكثيرٍ من شؤون الحياة ومواقعها وقوانينها، فمثلاً، على صعيدِ موضوعِ التَّوحيد، يُعدُّ هذا الرُّكنُ الدِّينيُّ قاعدةَ دعوةٍ لكلِّ النُّبوّاتِ والرِّسالاتِ في كلِّ ما كان الأنبياء يَعملون

من أجلِه ويَسعَون لإقامته.. ولكنَّ التَّوحيدَ ليس على مستوى واحدٍ في فَهمِ النّاسِ له، بل هو على مَراتبَ ومُستوياتٍ ودَرجاتٍ.. وحتَّى كبارُ العُرفاءِ والحُكماءِ يَختلفون في فَهمِه.. جاء عن الإمام السجّاد (عليه السلام): «إنّ اللهَ -تعالى- عَلِمَ أنَّه يكونُ في آخرِ الزَّمانِ أقوامٌ مُتعمِّقونَ، فأنزلَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ، والآياتِ من سورةِ الحَديدِ إلى قوله: ﴿**وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ [الحديد: 6]..»[1].

ثانيًا- الاختلافُ في تنفيذ مبدأ واحد في ظروف وأوضاعٍ مُختلفة

إنَّ الاختلافَ في تَنفيذِ الدَّعواتِ النَّبويّةِ يكونُ في الإطارِ والشَّكلِ، ولا يَطالُ المَضمونَ والجَوهرَ وروحَ الأحكامِ والقَوانينِ التي تَبقى ثابتةً وراسخةً مع اختلافِ الظُّروفِ وتغيُّرِ الأيام.

■ المبحث الرابع: فطريّة الدِّين.. ووحدةُ المسار والهَدف

الدِّينُ فطرةٌ داخليّةٌ جوّانيةٌ، زرَعَها اللهُ -تعالى- في كلِّ البشر، وهذا ما يُؤكِّدُه -عزَّ وجلَّ- في الآية الكريمة: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم: 30].. ولكنَّ هذه الفِطرةَ، التي فطرَ اللهُ النّاسَ عليها، قد تتعرَّضُ للتَّشويهِ والانحراف، نتيجةَ انغماسِ الإنسانِ في مَهاوي الزَّلَلِ والشُّرور. فهذه الفِطرةُ الإنسانيّةُ يجبُ تنقيتُها من الشَّوائبِ التي تحولُ دونَ

1 - الكليني: الكافي، ج1، ص91.

قيامِ صاحبها بواجبه الدِّينيِّ في الطّاعةِ والانقيادِ والخضوعِ لربِّ العالمين، والسَّعيِ الدّائمِ لرِضاهُ، والسَّيرِ لتَحقيقِ التَّكامُلِ في الحياة.. التَّكامُلِ على صعيدِه كفَردٍ ومُجتمعٍ وأمّة، ومَسيرةٍ إنسانيّةٍ مُوجَّهة وهادفة، يَنبغي أن تَسيرَ على هَديِ الإيمان وخطِّ الصِّراط المستقيم.. فالإنسانُ والمُجتمعُ مُتغيِّرانِ ومُتكاملانِ، ولكنَّ الطَّريقَ وخطَّ المَسيرِ واحدٌ ومُستقيمٌ ومَعروفٌ، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام: 153]. إنَّ غايةَ التَّكامُلِ التي يَسعى الإنسانُ لتَحقيقِها، كي يكون إنسانًا خليفةً بشكلٍ صحيح، يَعكسُ إيمانَه وفِطرتَه السَّليمةَ، يتغيَّرُ في شكلِه ونَموذجِه، ولكنْ لا يتغيَّرُ في مضمونه القائمِ على التَّوحيد والإيمان الحقيقيِّ بالله تعالى..

إنَّ كتابَ الله يُشدِّدُ على وحدة الأديانِ في مَضمونها ومَعناها وغايتِها، وأنَّه لا يُوجَدُ سوى طريقٍ وسَبيلٍ واحد، مع اختلافِ الشَّرائعِ وتعدُّدِ الرُّسلِ والنُّبوّات.. وأنَّ البشرَ هم في مَسيرِهم التَّكامليِّ مثلُ القافلةِ التي تتحرَّكُ في طريقٍ معيَّنٍ نحوَ هدفٍ ومَقصدٍ محدَّدٍ تتطلَّعُ للوُصولِ إليه، ولكنَّها في سَيرِها لا تَعرفُ الطَّريقَ فتُصادفُ في كلِّ وقتٍ شخصًا يَعرف الطَّريقَ، وبعدَ أن تَستدلَّ منه عليه تَطوي من الطَّريق عَشراتِ الكيلومترات حتّى تَصل إلى مكانٍ تَحتاجُ فيه مُجدَّدًا إلى دليلٍ جديد.. هذا الشَّخصُ الذي يُمثِّلُ دورَ المُرشِد والدّالِّ على الطَّريق هو النبيُّ، وهو الهادي والمُنير والمُرشِد والبَشير والنَّذير.. يتغيَّرُ في اسمه وشخصيّته بينَ وقتٍ وآخَر، ولكنَّه لا يتغيَّرُ في الغاية ومَضمونِ الإرشادِ والدَّعوة، وطبيعةِ التَّوجيهِ وإعطاءِ المَعالِم..

إنَّ الرّابطةَ المَوجودةَ بينَ النُّبوّاتِ واتِّصالها بعضِها ببعضٍ، يَدلّانِ على

أنَّ النُّبوّةَ تَسيرُ سَيراً تدريجيًّا نحو التَّكامُلِ، وأنَّ آخِرَ حلقةٍ من حلقاتِ النُّبوّةِ تُمثِّلُ أعلى قِمّةٍ فيها.. يقولُ العُرفاءُ المُسلمون: «الخاتَمُ مَن خَتَمَ المَراتبَ بأسرِها»، أي إنَّ النبيَّ الخاتمَ هو الذي اجتازَ جميعَ المراحلِ، ولم يُبقِ وَحيُه طريقًا إلّا سَلكَه، ولا بُقعةً إلّا كشفَها، وصولاً إلى المكاشفةِ الخاصّةِ بنُبوّةِ ورسالةِ الرَّسولِ الكريمِ محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهي آخِرُ المُكاشَفات والرِّسالات، التي لا يُوجَدُ مُكاشَفةٌ بعدَها، يقول تعالى: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [الأنعام: 115].

وقد يقولُ قائلٌ: طالَما انتهَتِ المُكاشَفاتُ، هل يَعني هذا أنَّ أبوابَ السَّماءِ أُغلقت، وبابَ الوَحيِ أُقفل، بخَتمِ النُّبوّةِ معَ الرَّسولِ الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم)؟!

وفي الإجابة نقولُ: إنَّ الاتِّصالَ بعالَمِ الغَيبِ والمَلكوتِ لا يَقتصر على الأنبياء، والدَّليلُ أنَّ القرآنَ الكريمَ تحدَّثَ عن أنَّ مقامَ النُّبوّةِ ليسَ هو المَقام الوَحيد المؤهَّل للاتِّصال بالغَيب.. فهناك أشخاصٌ -ليسوا بأنبياء- عاشوا حياةً رُوحيّةً عالية، ووصلوا إلى مرحلةِ التَّكامُلِ المَعنويِّ والصَّفاءِ الرُّوحيِّ، بحيثُ إنَّهم كانوا يتكلَّمونَ مع الملائكةِ، وتَصدُرُ عنهم أمورٌ خارقةٌ.. ونموذجُ ذلك مَريمُ بنتُ عمران، التي نقلَ عنها القرآنُ أمورًا مُدهشةً، وكذلك أمُّ موسى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [القصص: 7].. لم تكنْ أمُّ عيسى نبيّةً، كما لم تكنْ أمُّ موسى كذلك، والقرآنُ يَذكر أنَّ بابَ الإشراق والإلهام مَفتوحٌ أمامَ كلِّ من يُطهِّرُ باطنَه، حيث يَقول: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ**

﴿عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 29].

وفي البناءِ العَقائديِّ لمَذهبِ أهلِ البَيت (عليهم السَّلام) نجدُ أنَّ الأئمةَ عليهم السَّلام لا يَنقطعُ الفَيضُ الإلهيُّ عنهم.. وهذا يُشيرُ إلى أنَّ انقطاعَ النُّبوّة لا يَعني انقطاعَ المُهمّة الرِّساليّة الإلهيّة للإرشادِ والهداية، بل هو مستمرٌّ معَهم في كلِّ مَسيرةِ التّاريخِ البشريِّ، حتى يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها.

■ المَبحثُ الخامس: إشكاليةُ تعارُضِ الخُلود مع ناموسِ التَّبدُّل والتَّحوُّل

إنَّ التغيرَّ والتحوُّلَ هو مبدأٌ أساسيٌّ وجوهريٌّ في حركة الوجود، فلا يُوجَدُ شَيءٌ ثابتٌ يُمكنُ أن يَبقى على حاله أبدَ الدَّهر، وكلُّ شيءٍ يَخضع لهذا القانون، وبما أنَّ كلَّ شيءٍ مُتغيرٌّ فهذا يَتعارَضُ مع كونه خالدًا.. لأنَّ الخلودَ يَستلزِمُ الثَّباتَ.. والشَّيءُ الوحيدُ الذي يَبقى خالدًا هو أنَّه لا شيءَ يَبقى خالدًا...!.

والجواب عن الإشكاليّة السّابقة يَكمُنُ في أنَّ الأمورَ والأشياءَ لا يُنظَرُ إليها فقط من زاويةِ التحوُّلِ والثَّبات.. إذ إنَّ ما يتحوَّلُ ويتغيرَّ ويَتبدَّلُ من حال إلى حال هو العناصرُ المادِّيّةُ، وتراكيبُ المادّة، أمّا القيَمُ والقَوانينُ والأنظمةُ فلا تَخضَعُ لقانون التبدُّل والتغيرُّ، حتى لو كانَت أنظمةً طبيعيّةً.. فالنُّجومُ والكواكبُ وعَوالِمُ الفَضاءِ مثلاً، تتبدَّلُ، تَظهر وتَفنى، ولكنَّ ما يَبقى هو قانونُ الجاذبيّة؛ وهكذا الوَضعُ بالنِّسبة لعالَمَي النَّبات والحَيوان، فكلُّ ما فيهما يتبدَّلُ ويتغيرَّ ويَموت ويَفنى، ولكنَّ القَوانينَ الحاكمةَ على عِلمِ الأحياءِ تَبقى مُسيطِرةً ومُهيمنةً لا تتبدَّلُ..

وحتَّى على الصَّعيدِ الاجتماعيِّ، نلاحظُ مثلاً أنَّ البشرَ يَفنَونَ ويَموتونَ، ولكنْ يَبقى القانونُ هو الثّابت؛ وكذلك شخصُ النبيِّ يَموتُ ويَبقى قانونُه السَّماويُّ حيًّا. «وفي الطَّبيعة، فالظَّواهرُ هي التي تتغيَّرُ وليسَ القانون، والإسلامُ قانونٌ وليسَ ظاهرةً، وهو مَحكومٌ عليه بالمَوت لو لم يَكنْ مُتناسقًا مع قوانينِ الطَّبيعة. أمّا لو كانَ يَستقي من الفطرةِ ومِن طبيعة الإنسانِ والمُجتمعِ، وكانَ يَتناسق معَ الطَّبيعةِ وقوانينِها، فلَن يُصيبَه الموتُ والاندِثار»[1].

■ **المبحث السّادس: إشكاليّةُ تعارُض الخُلود مع سَيرورة الزَّمن ومقتضياته**

مفادُ هذه الإشكاليّة اجتماعيًّا أنَّ السُّنن المُتعلِّقةَ بالاجتماع البشريِّ (القوانين الاجتماعية) هي قوانينُ متَّفَقٌ عليها بين البشر، ويتمُّ وضعُها استنادًا لمصالحَ بشريّة وحاجات مجتمعية تَتناسبُ وطبيعةُ المُناخِ السّائد في وَقتها، بمعنى أنْ تُلائمَ مراحلَ زمنيّةً، ولا تلائمَ مراحلَ أخرى يَحدث فيها تغيُّراتٌ وتحوُّلات اجتماعية، ويتطوَّرُ العقلُ البشريُّ، أي أنَّه تكون احتياجاتُ كلِّ زمنٍ وعَصرٍ مُختلفةً عن احتياجاتِ الأزمنة والعصور الأخرى، وهذا يَستلزِمُ إحداثَ تغيُّرٍ في تلك القوانين يُناسِبُ المراحلَ الجديدةَ تَحقيقًا لمَصالحِ البشر، واستيعابًا لاحتياجاتهم، إذ لا يُمكِنُ لحاجاتِ النّاسِ في عصرِ الحِصانِ والسَّيفِ أن تكونَ هي نفسها حاجات النّاس في عصرِ الطّائرة والصّاروخ والسَّيارة الكهربائية..!!!..

1 - مرتضى مطهّري: ختم النبوّة، ص.ص. 46-47.

هذا التطوُّرُ يَقتضي تغيرًّا في العَقليّةِ والمُمارَسةِ العَمليّةِ، وضرورة تفهُّم مُتطلَّباتِ النّاس وحاجات الزَّمان الجديد..

وللجواب عن الإشكالية القائمة إلى اليوم، يَنبغي علينا مُعالَجةُ عدّةِ مَوضوعاتٍ وقَضايا مُهمّة، ذات صِلةٍ بنيويّةٍ بقضيّةِ التطوُّر والتَّجديد والدِّين، وفقًا لما يلي:

أولًا- قضية الجَبر التاريخيّ

الجبرُ هو: الحَتمُ أو الحَتميّةُ. ويَعني اصطلاحًا الوجوبَ والضَّرورةَ (بالمَعنى الفلسفيِّ)، وبالاصطلاح الفقهيِّ يَعني الإكراهَ والإجبار. وأمّا التّاريخُ فهو حركةُ الإنسانِ خلال سَيرِه في زمانِه وحياتِه، فيكون عبارةً عن جُملةِ الوَقائعِ والحَوادثِ التي تُشكِّلُ بمَجموعها سيرتَه، وسيرةَ المُجتمعاتِ والأُممِ والحضارات بالمُحصِّلة.. وعندما يُقال إنَّ هناكَ جبرًا تاريخيًّا فهذا يَعني أنَّ القوانينَ والسُّنن التّاريخيةَ والطَّبيعيّةَ هي التي تُهيمنُ وتتحكَّمُ بمَسيرة الإنسانِ ولا يُمكنُه التخلُّصُ منها، بل يَبقى خاضِعًا لها..

وبالرُّجوع إلى كتابِ الله، نجدُه يتحدَّثُ في آيات عديدة عن وجود عواملَ اجتماعيّةٍ وتاريخيّةٍ لها آثارٌ ونتائجُ قطعيّة حاسمة، يُطلَقُ عليها اسمُ السُّنن أو السُّنة التاريخية..

كما نجدُه يتحدَّثُ أيضًا عن وجود عواملَ اجتماعيّةٍ وسلوكيّة ذاتِ أثرٍ قطعيٍّ، وهي التي يُطلَقُ عليها اسمُ السُّنّة.. وهذه العواملُ لا تكون على نسقٍ واحد من حيث الفاعليّةُ والتأثيرُ الحَتميُّ، بل تَختلف وتتبايَنُ، فمنها ما يكون مُستقِرًّا ثابتًا لا يتغيَّرُ، مُستمرَّ التأثير والحضور، كالعامل العائليِّ

والجنسيِّ، وهو الذي يَدفع النّاسَ لتأسيس الأُسر وبناءِ المُجتمعات.. وهناك أيضًا عاملُ الدِّين الذي هو فِطرةٌ حتميّةٌ في الإنسان، تَدفعُه للمَيلِ نحوَ عالَمِ الكمال المُطلَق..

وهناك عواملُ أُخرى غيرُ مُستقرّة، كالاقتصاد والإنتاج، تتغيَّرُ أدواتُها، وقد تتبدَّلُ كلُّها، ليأتيَ مكانَها عاملٌ أو سُنّةٌ أُخرى.

من هنا يُمكِنُ التأكيد على أنَّه ليس من الصَّحيح إخضاعُ الحياةِ لسُنّةٍ واحدةٍ أو لعاملٍ واحد..

ثانيًا- تغيُّر الحاجات

تُقسَمُ الحاجاتُ البشريّةُ إلى نَوعَين أو قِسمَين، حاجاتٍ أوَّليّةٍ دائمة، وأخرى ثانويّةٍ مُتغيِّرة.. والإنسان بحاجةٍ للنَّوعَين معًا..

تَنبع الحاجاتُ الأوَّليّةُ الرَّئيسيّةُ من طَبيعةِ التَّراكيبِ الجَسمانيّة والرُّوحيّة، وحتَّى الاجتماعية للفَرد البَشري. حيث يَحتاجُها الإنسانُ لاستكمال وُجودِه الماديِّ والمَعنويِّ في هذه الحياة، فهو بحاجةٍ دائمة للغذاء والمَسكن وتأسيسِ عائلة، ويَحتاج لعَملٍ وشُغلٍ يُنفِقُ من خلاله على أُسرته.. كما أنَّه بحاجةٍ ماسّة للقِيَم الرُّوحيّة كالعلم والجَمال والاحترام ومُمارسة طُقوسه العباديّة، أي تَحقيق ذاته الرُّوحيّة.. ويَحتاج أيضًا للتَّفاعُل والتَّعاوُن مع غَيره، ولنظامٍ حقوقيٍّ يَعيش في ظلِّه، يُؤمِّنُ له الحرِّيةَ والعَدلَ والمُساواة..

وأمّا الحاجاتُ الفرعيّةُ (الثانوية) فهي تأتي كنَتيجةٍ للحاجات الأوَّليةِ أو تَنشأُ منها، حيثُ إنَّه يَحتاجُ إلى مختلف الأدوات والوسائل لمُمارسة حياتِه ومَعيشتِه وتَطويرِ فاعليّته الوُجودية، على صعيدِ وجودِ النُّظُم القانونية

والاجتماعية والبُنى التَّحتيّة السِّياسية التي تُحرِّضُ أجملَ ما فيه من حُضورٍ وفِعلٍ ووَعيٍ ومَسؤوليات عملية.

طبعًا القوانينُ والنُّظُم الاجتماعية والسِّياسيةُ تتغيَّرُ في شكلها وآليّات تحقُّقها، لكنَّها لا تتغيَّر في مَضمونها وعُمقها ومَعناها، حيثُ إنَّه يَجب أن تكونَ مبنيّةً على العَدالة والمُساواة والحقِّ والأخلاق والحقوق الفِطريّة للإنسان، كي تتحقَّقَ غايةُ وجود الإنسان على هذه الأرض..

ثالثًا- مُقتضياتُ الزَّمان وإلزاماته

يُقصَدُ بالمُؤثِّرات الزَّمنيّة، وما تَقتضيه مُحدِّداتُه، وجودُ تطوُّرات في البيئة والمجتمع، تَفرض على الإنسان الاستجابةَ لها وتلبيةَ مُتطلَّباتها. هذه الحالاتُ أو التطوُّراتُ والظَّواهرُ الجَديدةُ قد لا تكونُ بالضَّرورة إيجابيّةً أو ذاتَ أفكار جيِّدة تَعود بالنَّفع على الإنسان، ولهذا يَنبغي على الإنسان التأمُّل بها ومراقبتها، والتَّدقيق في نتائجها ومآلاتها، فقد تَدفعُه لمُمارسة سلوكيّاتٍ غيرِ صحيحةٍ وغيرِ نافعة.

■ المَبحثُ السابع: حاكميّةُ العَقل من حاكمية الشَّرع

إنَّ القوانينَ الخالدةَ خلودَ وجودِ الإنسان في الحياة هي التي يَنبغي أنْ تتمتَّعَ بصفتَين أو خاصِّيَّتَين أساسيَّتَين، أَولاهما: الانسجامُ مع فطرة الإنسان التي فَطرَ اللهُ -تعالى- النّاسَ عليها، في الغايةِ التَّكامُليّة التي حدَّدَها -تعالى- سَعيًا للوُصول إلى الكمال المُمكن للإنسان، وثانيتُهما: أن تَختزن تلك القوانينُ في مضمونها الدّاخلي قابليّةَ الاستجابةِ لتطوُّرات

الحياةِ والزَّمانِ، خصوصًا على الصَّعيدِ الاجتماعيِّ المُرتبِط بوجود الإنسان في الحياة.

ولا شكَّ في أنَّ الإسلامَ امتلكَ نظريًّا رُؤيةً معرفيّةً وفلسفيّةً مُتماسكةً على هذا الصَّعيد، حيثُ خلودُ أحكامِه وثَباتُ رُؤيتِه الكونيّةِ، ولهذا كان هو الدِّينُ الخاتَم..

فعِندَ مراجعتنا لنُصوصِ كلِّ الأديان والشَّرائع التي ظهرَتْ على مسرح التّاريخ البشريِّ منذُ آدمَ، نجدُ أنَّ الإسلامَ هو الدِّينُ الوحيدُ الذي أعلى من شأنِ العَقل، ونسجَ علاقةً قويّةً فعّالةً معَه، واعتبرَه رسولاً من داخل الإنسان، يَبقى معَه أبدَ الدَّهرِ حتى نهاية الخَليقة.. والكُتب الدِّينيّة -وعلى رأسها وفي مقدِّمتِها القرآنُ الكريم- مليئةٌ بالكثيرِ الكثيرِ من النُّصوصِ والأحاديثِ والرِّوايات التي تُعلي من مَرتبةِ العَقل، وتَدعو النّاسَ إلى العقلانية..

لقد ثبَّتَ الإسلامُ العقلَ مصدرًا من مصادرِ التَّشريعِ واستنباط الأحكام، وركَّزَ في ذهنيّةِ الأمّة المَقولةَ الشَّرعيّةَ المعروفة: «كلُّ ما حكمَ به العقلُ حكمَ به الشَّرعُ، وكلُّ ما حَكمَ به الشَّرعُ حكمَ به العَقلُ».

■ المبحث الثّامن: شموليّةُ القَوانين ووسطيّتُها ورَفضُ القَداسةِ للوَسائل والأدوات المادّيّة

يجبُ أن يكونَ القانونُ، الذي يَرنو للخُلودِ والبَقاء، شاملاً خاليًا من أيِّ عاملٍ من عواملِ الفَناءِ والزَّوال، وهذا يتطلَّبُ منه الاهتمامَ والتَّركيزَ على ما يُفيد النّاسَ في حياتهم لناحيةِ تَركيزِ مَعاني الأخلاقِ والقيَمِ الإنسانيّة، وعدمِ إهمالِ الجوانبِ الرُّوحيّةِ والمَعنويّةِ والاجتماعيّةِ والمادِّيّةِ للإنسان،

والإسلامُ يُقِرُّ ويَعترف، بل ويُشرِّعُ للقوانينِ الشّاملةِ لكلِّ مُستويات وجوانبِ الحياة الإنسانية، مع تعدُّدِ أبعادِ وُجودِ هذا الإنسان، وهذا ما تمَّ التَّعبيرُ عنه في القرآن الكريم بمَفهومٍ أو مُصطلحِ "الوَسطيّة".

لم يُهملِ الإسلامُ الجانبَ الماديَّ في حياة الإنسان، مع تَركيزِه على الجانبِ الرُّوحيِّ والأخلاقيِّ القِيَميِّ المَعنويِّ، ولكنَّه نظرَ إلى الإنسان في صورته الشّاملةِ ككلّ، من حيثُ إنَّ مُحتواهُ الدّاخليَّ هو الأساسُ في وجوده الحياتيِّ العمليِّ، ولهذا نظرَتِ الأحكامُ والوَصايا وكلُّ التَّعاليم الإسلاميّة للمَسألةِ الرُّوحيّة، واتَّجهَت جميعًا نحوَ المَضمونِ الرُّوحيِّ والمعنويِّ، لأنَّها هي السَّبيلُ الأهمُّ لإيصالِ النّاسِ لمُبتغاهُم ومَعاني حياتِهم الخالدة..

ولا يُمكنُ في الإسلام العثورُ على «أيّة وَسيلةٍ ماديّةٍ وظاهريّة تتَّخذُ طابعَ القُدسيّة بشَكلٍ يَجعَلُ المُسلمَ يَشعرُ أنَّ من واجبِه الحفاظَ على ذلك الشَّكلِ والمَظهَر، ولهذا فإنَّ تلافي التَّصادُم مع مظاهرِ التَّقدُّم العلميِّ والحضاريِّ هو من الأمور التي سهَّلَت عمليّةَ مُواكبةِ هذا الدِّينِ لمُقتضياتِ الزَّمان، وبذلك أزالَ العَقباتِ والمَوانعَ من طريق بقاءِ هذا الدِّينِ ودَيمومتِه»[1].

■ المبحث التاسع: وجود قوانينَ ثابتةٍ وأُخرى مُتغيِّرة

لقد وضعَ الإسلامُ مجموعةَ قوانينَ ثابتةٍ لا تتغيَّرُ بتغيُّرِ الزَّمانِ، تُلبِّي

1 - مرتضى مطهّري: ختم النبوّة، ص65.

حاجاتِ الإنسان (الفردية والمجتمعية) الثابتة والرّاسخة غيرَ القابلةِ للتغيُّر.. وهذا من أهمِّ أسباب بقاءِ هذا الدِّينِ حيًّا وخالدًا وعابرًا للأزمان..

ويُسمَّى النِّظامُ الذي يَحكمُ غرائزَ الإنسانِ بالأخلاق، والنِّظامَ الذي يَضعُه الإنسانُ لتَنظيم مُجتمعه بالعَدالة..

وهناك أيضًا حاجاتٌ مُتغيِّرةٌ غيرُ ثابتةٍ يَحتاجُها الإنسانُ، تَستوجِبُ هي بدَورها مناخاتٍ وأوضاعًا مُتغيِّرةً، ولكنْ رغم تغيُّرِها، تَبقى مَحكومةً بقَوانينَ ثابتةٍ ومبادئَ عُليا لا تتغيَّر.. ويُمكِنُ أن نَذكُرَ هنا هذَينِ النَّموذجَينِ أو المِثالَين:

المثالُ الأوّل: وردَ في القرآن نصٌّ يتحدَّثُ عن مبدأٍ جوهريٍّ اجتماعيٍّ، وهو الإعدادُ والأخذُ بأسباب القُوّة والتَّمكين، يقول -تعالى-: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ**﴾ [الأنفال: 65]..

أي أعدُّوا القوّةَ لمُواجَهة التَّحدِّيات حتَّى آخرِ حدٍّ تَستطيعونَه.. وهذا المَبدأُ نتعلَّمُه من كتاب الله، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ [الأنفال: 60].

المثال الثاني: جاءَ عن الرَّسول الكريم (صلَّى الله عليه وآله) أنَّه قال: «طلبُ العِلمِ فَريضةٌ على كلِّ مُسلِمٍ ومُسلِمة»[1]. وقد تحدَّثَ علماءُ الدِّينِ عن وجوبِ السَّعي الحَثيثِ في طلب العِلمِ والمَعرفةِ العِلميّةِ اكتسابًا،

1 - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج1، ص30.

وتأديةً للواجب.

وتحصيلُ العلم لا يَقتصرُ على زمنٍ أو مستوًى أو مجالٍ ما، بل هو مَطلوبٌ في كلِّ الأزمان، ولكلِّ العلوم، السِّياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، التي تُفيد الإنسانَ في حياته، وتَحفظ له كرامتَه وكرامةَ المجتمعِ الذي يَعيش فيه.

■ المبحث العاشر: قاعدة الأهمِّ والمُهمِّ والقواعد الحاكمة

تُعَدُّ قاعدةٌ «تبعيّة الأحكام للمَصالح والمَفاسد الواقعيّة» من القواعد الأساسيّة في الإسلام، والتي تدلُّ على انسجام ما جاءَ به هذا الدِّينُ من أحكامٍ وقواعدَ مع الفِطرة الإنسانية.. وهذا ما يَجعلُها باقيةً وخالدة..

ولا شكَّ أنَّ المَصالحَ والمَفاسدَ، التي يَجب أخذُ رأي الشَّرع بشأنها، لا تكونُ على نسقٍ ودرجةٍ واحدة. وهذا ما دفعَ لفَتح بابٍ مُهمٍّ له خصوصيّتُه في الفقه الإسلاميِّ، وهو "التَّزاحُم"، أو ما يُمكنُ تَسميتُه بـــباب «المُهمِّ والأهمِّ»، مُستضيئينَ هنا بتَعاليم وتَوجيهات الإسلام الخاصّة، يُروى أنَّه: «إذا اجتمعَتْ حُرمتان طُرِحَت الصُّغرى للكُبرى»[1]. أي يَنبغي السَّيرُ بالمَصلحة الأهمِّ على حساب المَصلحة الأقلِّ أهمِّيّةً.. وكمثال على هذا الباب، يَطرح العلماءُ المَوقفَ من مَوضوع تَشريح جثّة الميِّت، حيث إنَّ الإسلامَ أكَّدَ على حُرمة الميِّت، وعدمِ التَّمثيلِ بجُثّته لأيِّ سببٍ كان،

1 - مجد الدين المبارك (ابن الأثير): النهاية في غريب الحديث والأثر، ج1، ص374.

ولكن التَّشريحَ بغايةِ التعلُّم والدِّراسة البَحثيّةِ مهمٌّ جدًّا.. ولهذا يَدخل هنا بابُ التَّزاحُم، لنُواجِهَ مَصلحتَينِ، نأَخذُ بالأكثر أهميّةً منهما وهي التعلُّم والدِّراسة..

هناكَ مُحدِّداتٌ وضَوابطُ أُخرى تُعطي الأحكامَ الدِّينيّةَ صفةَ المُرونةِ والحَركيّةِ والانسجامِ، وتمَنحُها الخلودَ، أسماها الفُقهاءُ بـــــــ «القواعد الحاكمة»، أي القواعد التي تكونُ حاكمةً على جميع الأحكامِ والمُقرَّراتِ الإسلاميّةِ ومُهيمنةً عليها، وهذه القَواعدُ نَظيرُ المُفتِّشينَ العامِّين تُراقِبُ الأحكامَ والمُقرَّراتِ وتَضبطُها، وقاعدتا "الحرج" و"لا ضرر" هما من هذا النَّوعِ، والإسلامُ في الحقيقة قد أعطى لهذه القواعدِ حقَّ "الفيتو"[1].

■ المبحث الحادي عشر: صلاحيّات الحكومةِ الإسلاميّة

هناكَ صلاحياتٌ أعطاها ومنحَها الإسلامُ للحُكم الإسلاميِّ مُمثَّلًا بالرَّسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم)، انتقلَتْ لاحقًا للإمام عليه السَّلام، ومنه تمُنح وتَنتقل إلى أيِّ حاكمٍ شرعيٍّ آخر، يقول تعالى: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ [الأحزاب: 6].

ثمَّ إنَّ مجالَ هذه الصَّلاحيّاتِ واسعٌ، حيثُ تَستطيعُ الحُكومةُ الإسلاميّةُ في الظُّروفِ والحاجات المُستجِدّةِ، وبالاستنادِ إلى المبادئ والأُسس

1 - مرتضى مطهري: النبوة، ص.ص. 71-72.

الإسلاميّة، أن تضعَ مجموعةً من المُقرَّراتِ التي كانَت مُنتفِيةً مَوضوعيًّا[1] في الماضي.

1 - محمد حسين النائيني: تنبيه الأمة وتنزيه الملة، ص.ص. 99-102؛ محمد حسين الطباطبائي: الولاية والزعامة في كتاب "المرجعية والعلماء"، ص.ص. 82-84.

الفصل السّابعُ:

دورُ العلماء بعد خَتمِ النُّبوّة

هناكَ نوعان وشَكلان من المهامِّ والوَظائف الرِّساليّة التي أُلقيَتْ على عاتق الرُّسل والأنبياء، الأول: أنَّ الأنبياءَ (على نبيِّنا وعليهم أفضلُ الصَّلاة والسَّلام) كانوا يَطرحونَ على البشريّة برنامجًا عمليًّا أنزلَه -تعالى- عليهم؛ والثاني: أنَّهم كانوا يُمارسونَ عمليّةَ الدَّعوة إلى شرع الله، وتَبليغهم تَعاليمَه وأحكامه، ويَدعونَهم لتَطبيقها وتمَثُّلها.. أي أنَّ هناكَ نُبوّةً تشريعيّةً، ونُبوّةً تَبليغيّةً.. وقد كانَ عددُ الأنبياء الذين اختصُّوا بالنُّبوّة التَّشريعيّة قليلاً جدًّا، وعددُ الأنبياء المُبلّغينَ أكثرَ بكثير..

وهنا قد يَرِدُ إشكالٌ يَحتاج لتَدقيق وبحث وإجابة حقيقيّة، وهو لماذا بقيتْ أمّةُ محمَّد وأمّةُ الإسلام مَحرومةً من تَوجيه أنبياء كهؤلاء وإرشادهم؟ ولو قَبلْنا فَرضًا أنَّ الإسلامَ قد ختمَ النُّبوّةَ التَّشريعيّةَ، لكماله وتمَامه وكلِّيّته وشُموله، فبأيّة مُعادَلة وبأيّة فلسفة يُمكِنُ تَسويغُ انتهاء النُّبوّة التَّبليغيّة؟[1].

■ المبحثُ الأوَّلُ: حلولُ العَقل والعلم مَحلَّ الوَحي التَّبليغيّ

النُّبوّةُ والأنبياءُ عليهم واجبٌ جوهريٌّ ورئيسيٌّ هو هدايةُ النّاس، والوَحيُ يأتي ليَكونَ الواجبَ الأوَّلَ.. كما أنَّ واجبَ الإبلاغ والتَّحرُّكَ على طريق الدَّعوة مسألةٌ تضمُّ عدّةَ واجبات بشريّة وإلهيّة.. يقول تعالى: ﴿**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ [طه: 50]..

والهدايةُ هي الموضوعُ الأساسيُّ المتُعلِّقُ بالمَوجودات التي تكون استفادتُها من الهداية مَرهونةً لدرجةِ ما وصلَتْه من كمالاتٍ، أي ما حقَّقتْه

1 - مرتضى مطهّري: ختم النبوّة، ص37.

من مكاسبَ رُوحيّةٍ أخلاقيّةٍ قِيَميّةٍ عالية في مراتبِ التَّكامُل الإلهيِّ.. وهذا الأمرُ خاضع بدَورِه لمَدى ما تمتلكُه تلك المَوجوداتُ من قُوًى إدراكيّةٍ حسِّيّةٍ ومَعنويّة، ووسائل طبيعيّة، فعّالة ومُؤثِّرة..

لقد أنزلَ اللهُ الوحيَ على الأنبياء كمَظهرٍ أساسيٍّ من مظاهرِ الهداية في أعلى دَرجاتها ومَواقعها ومَراتبها، وله الكثيرُ من المعاني والمُعطيات والمُؤشِّرات غيرِ القابلة للفَهمِ والحسِّ والخيالِ والعَقلِ والعِلمِ والفَلسفة.. وهذا ما نَعرِفُه عن الوَحي الخاصِّ بالتَّشريعِ لا بالتَّبليغ.

إنَّ حاجةَ البشرِ إلى الوَحي التَّبليغيِّ باقيةٌ ما دامَ لم يَبلغ فيه العقلُ والعلمُ والتمدُّنُ درجةً يَستطيعُ البشرُ معَها أن يتعهَّدوا بأنفسِهم الدَّعوةَ والتَّعليمَ والتَّبليغَ والاجتهادَ في أمرِ دينِهم، فظهور العِلمِ والعَقلِ -وبعبارة أخرى: نضجُ الإنسانيّةِ وبلوغُها- يَختمان بذاتَيهما الوحيَ التَّبليغيَّ، فيَحلُّ العلماءُ محلَّ هؤلاءِ الأنبياء. وما يُؤيِّدُ هذا هو الدَّعوةُ القويّةُ والواسعةُ في نصوص القرآن إلى ضرورةِ التعقُّلِ والتعلُّم، وبناءِ الاستدلالات ومُعايَنة مَظاهرِ الطَّبيعة والاستقصاءِ في مُختلَف مواقعِ الحياة حسيًّا وتجريبيًّا.. ودعوته أيضًا إلى وعيِ التّاريخِ في أحداثه ووقائعه وذكرياته، وما إلى ذلك.. ويُوجَدُ هناكَ للمُفكِّرِ محمد إقبال اللاهوري كلماتٌ مُهمّةٌ وجميلةٌ يقولُ فيها: «لقد وَفَّقَ نبيُّ الإسلام بين العالَمِ القَديم والعالَمِ الجَديد، فعندَما يكونُ الحديثُ عن مصدرِ إلهامه فهو يتعلَّقُ بالعالَمِ القَديم، وعندَما يكونُ الأمرُ مُختصًّا بروحِ إلهامه فهو يَخصُّ العالَمَ الجَديدَ، فالحياةُ فيه تكتشفُ مصادرَ أُخرى للمَعرفة جديرة بخطِّ مَسيرِه الجَديد، وظهورُ الإسلام وولادتُه تُعتبَرُ ولادةً للعَقلِ

البرُهانيِّ الاستقرائيِّ، والرِّسالةُ بلغَت حدَّ الكمال بظُهورِ الإسلام نتيجةَ اكتشافِ ضرورةِ انتهائها، ما يَستلزِمُ في نفسِه الإدراكَ الذَّكيَّ لحقيقةٍ تنصُّ على الحياة لا يُمكِنُها أن تستمرَّ دائمًا على شكلِ مَرحلةِ الطُّفولةِ المَحفوفةِ بالوصايةِ من الخارج...»[1].

بناءً على ما تقدَّمَ يُمكِنُنا القولُ بأنَّ وصولَ البشريّةِ إلى مستوًى من النُّضجِ العقليِّ والتَّكامُلِ العلميِّ، والبلوغِ الفكريِّ والمَعرفيِّ، على مستوى الكَشفِ والاختراعِ واكتشافِ القَوانينِ والنَّظريات، وتلقِّي الحَقائقِ الكلِّيّةِ للمَعارفِ والقَوانين، كلُّ ذلكَ يَستدعي انتهاءَ الرِّسالة، لأنَّ القسمَ الأكبرَ من الواجبات، التي كان الوَحيُ يُؤدِّيها مُضطرًّا في المَرحلة الأولى من البَشريّة، تُؤدِّيه القوّةُ العلميّةُ والعَقليّةُ في مرحلة الرُّشد والبُلوغِ العقليِّ والعلميِّ، فيُصبحُ العُلماءُ ورثةَ الأنبياء[2].

■ المبحث الثاني: الدَّورُ المُلقى على عاتقِ العُلماء بعدَ انتهاءِ النُّبوّةِ التَّبليغيّة

لقد كلَّفَ الإسلامُ العُلماءَ والمُبلِّغينَ بأدوار أصيلةٍ وحيويّةٍ، وهي أدوارٌ جاءتْهم مُنبثِقةً من صفةِ الخاتميّةِ التي هي مسألةٌ خاصّةٌ بديننا الإسلاميِّ الحَنيف:

1 - محمد إقبال اللاهوري: إحياء الفكر الديني في الإسلام، ص125.
2 - مرتضى مطهّري: ختم النبوّة، ص.ص. 38-45.

أولًا- الدَّعوة والتَّبليغ

وهو أوَّلُ دَور وأوَّلُ مُهمّة رساليّة انتقلَت من الرُّسل إلى العُلماء، حيثُ إنَّ البشريّةَ بحاجةٍ مُستمرّة للتَّبليغ والإرشاد وإيضاح حقائق الشَّرع وتَعاليم الدِّين، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ [آل عمران: 104].

ثانيًا- مقاومة التَّحريف والتَّشويه ومُحارَبة البدع

يَقول النبيُّ الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم): «إذا ظهرَتِ البِدَعُ فعَلى العالِم أن يُظهرَ علمَهُ، ومَن لم يَفعَلْ فعَليه لَعنةُ الله»[1].

وهي مُقاوَمةٌ مُستمرّةٌ وباقيةٌ ببَقاءِ الفِكرِ الأوَّلِ والمَرجعِ الأساسيِّ، وهو القرآنُ الكريم، دستورُ المسلمين..

ثالثًا- الاجتهاد

يُعَدُّ الاجتهادُ من المهامِّ الجَسيمة والمَسؤوليّاتِ الشَّرعيّة الكُبرى التي ألقاها الشَّرعُ على كاهلِ العُلماءِ في ضرورةِ سَعيهم لاستنباط الأحكام الشَّرعية، والسَّعي الحثيث لاستدراك ما لم يَرِدْ فيه نصٌّ حقيقيٌّ، وذلك استنادًا للقرآن والسُّنة والإجماع والعَقل.. ولا شكَّ أنَّه يُوجَدُ للفقه الإسلاميِّ الشِّيعيِّ إضافةٌ نوعيّةٌ في هذا السِّياق، إذ إنَّ العوامَّ مأمورونَ شرعًا -في مرحلة غَيبة الإمامِ المَهديِّ عجَّلَ اللهُ فَرَجَه الشَّريفَ- بتَقليدِ

1 - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج1، ص54.

الفَقيه الجامع للشَّرائط، أي الفقيه الأعلَم والأتقى والأعدل.. يَقول الإمامُ الحسنُ العَسكريُّ (عليه السَّلام): «فأمّا مَن كانَ مِنَ الفُقهاء صائنًا لنَفسه، حافظًا لدِينه، مُخالفًا لِهَواهُ، مُطيعًا لأمرِ مَولاهُ، فللعوامِّ أنْ يُقلِّدوهُ..»[1].

■ المبحثُ الثّالثُ: التّنوُّعُ الهائلُ في المراجع والمَصادر الإسلاميّة

إنَّ المُراقبَ للتّاريخ الفكريِّ الإسلاميِّ يَجد أنَّ هناك تنوُّعًا كبيرًا وهائلاً في المَصادر والمَراجع الإسلاميّة، التي تنطلقُ في كثيرٍ من معالجاتها من القرآن الكريم، على مُستوى الاستنباط والتَّحليل والبحث والاستدلال والاستكشاف وغيرها.. وقد أشار النبيُّ الكريم (صلى الله عليه وآله) إلى هذه الخاصِّيّة التَّجدُّديّة الكامنة في كتاب الله من حيث إنَّه لا يَختصُّ بعَصرٍ دونَ آخَرَ، معَ قابليّته للبَحث والتَّحقيق.. يَقول (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم): «ظاهرُهُ أنيقٌ وباطنُهُ عَميقٌ، له تُخومٌ وعلى تُخومه تُخومٌ، لا تُحصَى عجائبُهُ، ولا تَبْلى غَرائبُهُ»[2]. وقد سُئل إمامُنا جعفرٌ الصّادقُ (عليه السلام): ما بالُ القُرآن لا يَزيدُ بالنَّشر والدِّراسة إلّا غَضاضةً؟ قالَ عليه السَّلامُ: "لأنَّهُ لم يَنزلْ لزَمانٍ دُونَ زمانٍ، ولا لناسٍ دونَ ناسٍ، ولذلك فهو في كلِّ زمانٍ جَديدٌ، وعندَ كلِّ ناسٍ غَضٌّ»[3]. وعن النبيِّ الكريم (صلىَّ

1 - محمد بن الحسن (الحر العاملي): وسائل الشيعة، ج27، ص131.
2 - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج2، ص599.
3 - محمد بن علي الصدوق: عيون أخبار الرضا (عليه السلام)، ج2، ص93.

الله عليه وآله وسلَّم): «نصرَ اللهُ عبدًا سمعَ مَقالتي فوَعاها وبَلَّغَها مَن لم يَسمَعْها، فرُبَّ حاملِ فِقهٍ غيرِ فَقيهٍ، ورُبَّ حاملِ فِقهٍ إلى مَن هو أفقَهُ مِنهُ»[1].

1 - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج1، ص403.

المصادر والمراجع

- إقبال اللاهوري، محمد، إحياء الفكر الديني في الإسلام، تر. أحمد أرام، لا.ن، لا.م، لا.ت، لا.ط.
- بن بابويه، محمد بن علي (الشيخ الصدوق)، من لا يحضره الفقيه، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين في قم، قم، ط2، عام 1994م.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، تح. أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، بيروت، 1987م.
- الحسين بن عبد الله، (ابن سينا)، الشفاء-الإلهيّات، راجعه وقدم له: الدكتور إبراهيم مدكور، تح. الأب قنواتي؛ وسعيد زايد، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، لا.ط، عام 1984م.
- الذهبي، محمد أحمد، سير أعلام النبلاء، إشراف وتخريج: شعيب الأرناؤوط، تح. حسين الأسد، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ط9، عام 1993م.
- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، طبعة عام 1997م.
- الطباطبائي، محمد حسين، الولاية والزعامة في كتاب «المرجعية والعلماء»، ط2، بلا تاريخ.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد ، كتاب العين، تح. الدكتور مهدي المخزومي؛ والدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسّسة دار الهجرة، قم، ط2، عام 1988م.

■ الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تح. علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، ط5، عام 1984م.

■ المبارك، مجد الدين (ابن الأثير)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تح. طاهر أحمد الزاوي؛ محمود محمد الطناحي، مؤسّسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، قم، ط4، عام 1985م.

■ المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، مؤسّسة الوفاء، بيروت، عام 1983م، ط2.

■ محمد بن الحسن (الشريف الرضيّ)، نهج البلاغة (خطب الإمام علي عليه السلام)، تحقيق وتصحيح: صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1967م.

■ محمد بن الحسن، (الحر العاملي)، وسائل الشيعة، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، طبعة عام 2007م.

■ محمد بن علي (الشيخ الصدوق)، عيون أخبار الرضا، تح. الشيخ حسين الأعلمي، مؤسّسة الأعلمي، بيروت، لا.ط، عام 1984م.

■ مطهّري، مرتضى، ختم النبوّة، تر. عبد الكريم محمود، دار المحجة البيضاء، بيروت، لا.ت، لا.ط.

■ مطهري، مرتضى، سلسلة أصول الدِّين-النبوّة، تر. جواد علي كسّار، دار الحوراء-مؤسّسة أمّ القرى، بيروت، طبعة عام 2001م.

■ النائيني، محمد حسين، تنبيه الأمة وتنزيه الملة، تعريب: عبد المحسن آل نجف، تح. عبد الكريم آل نجف، تقديم: الشيماء العقالي، دار الكتاب المصري، مصر/القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، طبعة عام 2012م.

الفهرس

المقدمة 5

الفصل الأول 7

النُّبوّةُ أصلٌ من أصولِ الدِّين

المبحث الأوّل

9 | **المَفهوم والمَعنى العامُّ للنُّبوّة**

المبحث الثاني

11 | **ضرورة النُّبوّة والحاجة إلى الدِّين**

الفصل الثّاني 21

ضَرورة النُّبوّة

المبحث الأوّل

23 | **مناهجُ إثبات ضرورة النُّبوّة**

المبحث الثّاني

26 | **المَعاييرُ القرآنيّة لبيان حكماءِ الدِّين الإسلاميّ**

الفصل الثّالث 29

مفهومُ الوَحي وخَصائصُه

المبحث الأول

31 | **الوَحيُ في اللُّغةِ والقُرآن الكريم**

المبحث الثّاني
32 | **وَحْيُ النُّبوّة**

المبحث الثّالث
33 | **الخَصائصُ الأساسيّةُ لوحي النُّبوّة**

المبحث الرّابع
36 | **مَاهيّةُ الوَحيِ وحقيقتُه**

الفصل الرَّابع 43
المُعجزةُ والنّظريّات حولها

المبحث الأول
45 | **مَفهومُ المُعْجزة.. النَّظريّة التّأويليّة**

المبحث الثّاني
45 | **تعريفُ المُعْجزة**

المبحث الثالث
52 | **النَّظريّة الوَضعيّة**

المبحث الرابع
56 | **نظريّةُ حُكماءِ المُسلمين**

المبحث الخامس
57 | **المُعجزةُ ومَبدأ العلِيّة**

المبحث السادس
59 | **شُبْهة المَحدوديّة والردُّ عليها**

الفصل الخامس 61
الإعجازُ القُرآنيّ

المبحث الأول
63 | **الإعجازُ اللَّفظيّ**

المبحث الثاني
70 | **الإعجاز في الجانب المَعنويّ**

المبحث الثالث
76 | **إعجازُ القرآن في التَّوحيد والمَعارف الإلهيّة**

المبحث الرّابعُ
79 | **القُرآنُ والجَمال الوَصفيُّ الفائق**

المبحث الخامس
81 | **علاقةُ الإنسان باللّه في القرآن**

المبحث السادس
81 | **أقوَمُ السُّبُلِ المَنطقيّة لمعرفة اللّه**

الفصل السادس 83
خَتْمُ النُّبوّة ومُسوِّغاتُها

المبحث الأوّلُ
85 | **تساؤلاتٌ حولَ خَتم النُّبوّة**

المبحث الثاني
87 | **المُقوِّمات الأساسيّةُ لمسألةِ خَتم النُّبوّة في الإسلام**

المبحث الثالث
88 | **حقيقةُ الدِّين وَصلت إلى غايتِها مع خاتَمِ الأنبياء (ص)**

المبحث الرابع
89 | **فطريّة الدِّينِ.. ووحدةُ المسارِ والهَدف**

المبحث الخامس
92 | **إشكاليةُ تعارُضِ الخُلود مع ناموسِ التَّبدُّل والتَّحوُّل**

المبحث السّادس
93 | **إشكاليّةُ تعارُض الخُلود مع سَيرورة الزَّمن ومقتضياته**

المبحث السابع
96 | **حاكميّةُ العَقل من حاكمية الشَّرع**

المبحث الثّامن
97 | شموليّةُ القَوانين ووسطيّتُها ورَفضُ القَداسةِ للوَسائل والأدوات المادّيّة

المبحث التاسع
98 | وجود قوانينَ ثابتةٍ وأخرى مُتغيِّرة

المبحث العاشر
100 | قاعدة الأهمِّ والمُهمِّ والقواعد الحاكمة

المبحث الحادي عشر
101 | صلاحيّات الحكومةِ الإسلاميّة

الفصل السّابعُ 103
دورُ العلماء بعد خَتمِ النُّبوّة

المبحث الأوَّلُ
105 | حلولُ العقَل والعِلمِ مَحلَّ الوَحي التَّبليغيّ

المبحث الثاني
107 | الدَّورُ المُلقى على عاتقِ العُلماء بعدَ انتهاءِ النُّبوّةِ التَّبليغيّة

المبحث الثّالثُ
109 | التّنوُّعُ الهائلُ في المراجع والمَصادر الإسلاميّة

المصادر والمراجع 111

سلسلة الدراسات العقائدية

ليست العقائد مجموعة من الأفكار أو النظريات العقلية، بل هي منظومة تعمل لتشكيل وجود الإنسان في بُعده المعنوي وصورته المثالية، وتصوغ سلوكه العملي ومَلكاته الأخلاقية من خلال بنيان عقلي مُحكم، ومن ثَمّ تُشكّل هويّته الفردية والاجتماعية. والعقائد الحقّة شرطٌ للحياة الطيبة التي تعني الخلو من الخبائث وإن كانت مليئة بالتعب؛ يقول -تعالى-: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾، وهي أيضاً -أي العقائد- شرط ليرتفع العمل الصالح في مراتب الوجود ويُحدث أثره التكويني؛ يقول -تعالى-: ﴿**... إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ...**﴾. فالأبحاث العقائديّة هي العنصر المحوريّ في بناء الإيمان، والخير كلّه يبدأ من الإيمان. على أنّ هذا الإيمان لا يحصل بمجرّد امتلاك الاعتقاد السّليم، بل إنّه عمليّة تفاعليّة تجري في القلب من خلال قدرة المفكّر على اكتشاف تجلّيات العقائد الحقّة في واقعه الاجتماعيّ، وفي تجاربه الحياتيّة، وفي العالم الكيانيّ الكبير. ونظراً لأهمية البعد العقائدي في حياة الإنسان، تأتي سلسلة (الدراسات العقائدية) لتقدم للقارئ كتابات حول نظريات المعرفة والرؤية الكونية الإسلامية للوجود والحياة، ونتناول فيها العقائد الحقّة مع الإشارة لموارد التهديد العقائدي من الأفكار الاستشراقية والحداثوية؛ إذ لا يخفى أنّه كلما تسامت وتكاملت المعرفة تصاعد الثواب والقرب إلى الله، فبعض المستويات العالية والرفيعة في الدين شرطها الأساسي هي المعرفة والعلم ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾، فهذه الخشية ترتبت على العلم، وهكذا كلما ترقى المكلف في المعرفة يصل إلى مستويات إيمانية أعلى، وكما ورد عن أمير المؤمنين: «.. إلهي ما عبدتك خوفا من عقابك ولا طمعا في ثوابك، ولكن وجدتك أهل للعبادة فعبدتك». لذا، نحاول من خلال هذه السلسلة ترسيخ مفهوم استقلالية العقل والفكر، والتوفّر على المقاييس الصّحيحة والمدروسة والمعتمدة على البديهيّات الأوّلية، والعناية بالاستعداد لإدراك المفاهيم الإسلامية الرّفيعة، وذلك بأسلوبٍ سهلٍ يقترب من أذهان الشّباب.

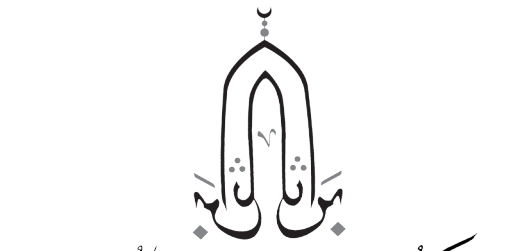

مركز بحثي مستقل غير ربحي، مقره في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والأكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها الحراك الاجتماعي والانساني الكبير الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية، ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والإجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجِدة؛ سعيًا للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدّمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

في هذا الكتاب

يُسلّطُ هذا الكتابُ الضوءَ الفكري والمعرفي التحليلي على مبحث مهم من مباحث العقيدة الإسلامية، وهو مبحث النبوة. تم تقسيم هذا الكتاب إلى عدة مباحث أساسية تختص بمسألة النبوة وترتبط معها في معناها ودوافع حاجة المجتمعات البشرية إليها، وضرورتها، وعلاقتها بموضوع الوحي.

كما تطرق البحث إلى موضوع آخر يرتبط بمبحث النبوة وهو المعجزة التي لا يمكن إثبات النبوة من دونها؛ حيث تم التوسع بالحديث عن المعجزة اللغوية للقرآن الكريم في تضمّنها وبيانها لكثير من القضايا الفكرية والعملية الحياتية والمسائل الإلهية المتصلة بعالم الملكوت وما وراء الطبيعة، وضرورة استمرارها وخلودها كدلالة على ختم النبوة التي أعلن وصرح عنها كتاب الله تعالى؛ فالكلمة تمت والرسالة ختمت صدقاً وعدلاً، يقول تعالى: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

- الدراسة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز -

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد